

## الفصل الثاني

### ماهية التحقيق والمواد المساعدة عليه

إن أى باحث فى العلوم الإنسانية، مطالب بتحقيق النص الذى يستنبط منه نتائج معينة، قبل أن يقدم على استنباط هذه النتائج، وليس من اللازم أن يكون ذلك النص مخطوطا، فكثير من الكتب المطبوعة التى بين أيدينا لا تفتقر كثيرا عن المخطوطات، إذ أن الذين تولوا طبعها ونشرها طائفة من الوراقين وبعض الأديباء الذين لا يدرون عن فن تحقيق النصوص شيئا<sup>(١)</sup> ولذا جاءت هذه المطبوعات فى كثير من الأحيان مليئة بالتصحيف والتحريف، ونصوصها مضطربة، مشوشة، تبعد كثيرا عن الأصل الذى كتبه مؤلفها ! ولذا وجب أن نعرف ماهية التحقيق.

التَّحْقِيقُ فى عرف أهل العلم: إثبات المسألة بالدليل<sup>(٢)</sup>.

وأحقُّ الأمر: أَوْجَبَهُ وَصِرَهُ حَقًّا لا يُشَكُّ فيه.

ومحقَّق: أى مُحَكَّم، يقال: «كَلَامٌ مُحَقَّقٌ» أى مُحَكَّمٌ منظم.

وَحَقُّ الأَمْرِ مُحَقَّقٌ - بكسر الحاء وضمُّها فى المضارع - حَقًّا: أى ثبت ووجب.

وَحَقٌّ له - بفتح الحاء وضمُّها - ثبت له أو أُثبت له.

وأحقُّ الله الحَقَّ: أى أظهره وأثبته للناس.

والحقُّ: هو الثابت الصحيح، وهو ضدُّ الباطل.

وهو لفظ كثير الورد فى القرآن الكريم، والمراد به على سبيل التعيين يختلف باختلاف المقام الذى فيه الآيات، ومعناه العام لا يخلو من معنى الثبوت والمطابقة للواقع<sup>(٣)</sup>.

(١) انظر الطبعة الثانية لكتاب (الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية) للشيخ حسين المرصفي وقد ظهر منها جزءان: الأول سنة ١٩٨٠ والثانى سنة ١٩٩١ بتحقيق وتقديم الدكتور عبدالعزيز الدسوقي. وانظر نقد ودراسة لهذا البحث فى مجلة معهد المخطوطات بقم مؤلف هذا الكتاب وانظر ما كتبه المؤلف عن منهجية التحقيق لهذا الكتاب فى جريدة الجمهورية الخميس ٢٨ نوفمبر ١٩٩١.

(٢) التهاتوى (كشف إصطلاحات الفنون) ط كلكتا سنة ١٨٦٢ وذلك نقلا عن الصادق الحلوانى فى حاشية بديع الميزان ويقول الجرجانى فى كتاب التعريفات ص ٤٦ ط. التحقيق: إثبات المسألة بدليلها.

(٣) معجم الفاظ القرآن ٢٨٨/١ وما بعدها.

وقال أبو البقاء: «التحقيق: تفعيل، من حَقَّ بمعنى ثبت. وقال بعضهم: التحقيق لغة: رجع الشيء إلى حقيقته، بحيث لا يشوبه شبهة، وهو المبالغة في إثبات حقيقة الشيء بالوقوف عليه. والتحقيق: مأخوذ من الحقيقة، وهو كون المفهوم حقيقة»<sup>(١)</sup>.

ثم يقول: «والتدقيق: إثبات دليل المسألة على وجه فيه دقة»<sup>(٢)</sup>.  
والتحقيق في اصطلاح أهل الفن: هو بذل الجهد، واستقصاء البحث، بغية الوصول إلى حقيقة ما قاله مؤلف النص.

أو قل: هو عملية مركبة تقتضى إخراج نص مضبوط يكون على الصورة التي قاله عليها صاحبه، أو أقرب ما يكون إلى ذلك على الأقل.  
والذى اتفق عليه شيوخنا المحققون من ذلك: أن يؤدي نص الكتاب أداء صادقاً، كما وضعه مؤلفه، كما وكيفاً بقدر الإمكان.

فيتساءل المحقق بالنسبة لذلك النص عدة تساؤلات:

١ - هل نسبة النص إلى مؤلفه صحيحة؟ وإذا لم تكن صحيحة، فهل النص منسوب خطأ إلى غير صاحبه، أو أنه نص منتحل بأكمله؟

٢ - هل النص نقيٌّ كامل خالٍ من التغيير أو التشويه أو النقص أو الزيادة؟

٣ - ما هو تاريخ النص؟

والمحقق عرضة فيما ذكر للخطأ، ويجب أن تكون خشية الخطأ باستمرار طريقه العلمى. فالكتاب المحقق هو: الذى صح عنوانه، واسم مؤلفه، ونسبة الكتاب إليه، وكان متنه أقرب ما يكون إلى الصورة التي تركها مؤلفه.

وعلى ذلك فالجهود التي تبذل في كل مخطوط يجب أن تتناول البحث في الزوايا التالية:

١ - تحقيق عنوان الكتاب.

٢ - تحقيق اسم المؤلف.

٣ - تحقيق نص الكتاب، حتى يظهر بقدر الإمكان مقاربا لنص مؤلفه.

ولما كان من العسير وجود نسخة المؤلف - خاصة في القرون الثلاثة الأولى للهجرة - اعتبرنا الإملاء الذى يراجع المؤلف مساويا للنسخة التي بخط المؤلف.

وبديهى أن وجود نسخة المؤلف أو الإملاء الذى راجعه، لا يجوجنا إلى مجهود إلا بالقدر

(١) كليات أبى البقاء، ص ١٢٢ طبعة بولاق سنة ١٢٣٥هـ.

الذى تتمكن به من حسن قراءة النص، نظراً إلى ما قد يوجد في المخط القديم من إهمال النقطة والإعجام، ومن إشارات كتابية لا يستطيع فهمها إلا بطول الممارسة والإلف، وهذا الأمر يتطلب علماً في الفن الذى وضع فيه الكتاب، متمرساً بخطوط القدماء.

وليس تحقيق النص تحسيناً أو تصحيحاً، وإنما هو أمانة الأداء التى تقتضيها أمانة التاريخ، فإن نص الكتاب حكمٌ على المؤلف وتاريخ لتفكيره، وهو كذلك حكمٌ على عصره وبيئته، وهى اعتبارات تاريخية صادقة لها حرمتها.

والتصرف فى نص الكتاب اعتداء على المؤلف الذى له وحده حق التبديل والتغيير أو التنقيح.

#### ١ - تحقيق العنوان:

وليس بالأمر الهين. فبعض المخطوطات يكون خالياً من العنوان:

(أ) إما لفقد الورقة الأولى منها.

(ب) أو انطماس العنوان.

(ج) وأحياناً يثبت على النسخة عنوان واضح جلي، ولكنه يخالف الواقع

١ - إما من دواعى التزييف.

٢ - وإما للجهل قارئاً، وقعت إليه نسخة مجردة من عنوانها فأثبت ما خاله عنواناً.

فيحتاج المحقق فى الحالة الأولى إلى إعمال فكره فى ذلك بطائفة من المحاولات التحقيقية كأن يرجع إلى كتب المؤلفات، كـ فهرست ابن النديم، أو كتب التراجم. أو أن يتاح له الظفر بطائفة من نصوص الكتاب مضمنة فى كتاب آخر، أو أن يكون له إلف خاصاً، أو خبرة دقيقة، بأسلوب مؤلف من المؤلفين وأسماها ما ألف من الكتب، فتضع تلك الخبرة فى يده الخيط الأول، للوصول إلى حقيقة عنوان الكتاب.

والانطماس الجزئى لعنوان الكتاب، مما يساعد كثيراً على التحقيق من العنوان الكامل متى وضع معه فى النسخة اسم المؤلف، فإن تحقيقه موكول إلى معرفة ثبت مصنفات المؤلف، وموضوع كل منها متى تيسر ذلك.

وأما التزييف المتعمد فيكون بمحو العنوان الأصيل للكتاب، وإثبات عنوان لكتاب آخر، أجل منه قدرأ، ليلقى بذلك رواجاً، وقد ينجح المزيف نجاحاً نسبياً بأن يقارب ما بين خطه ومداده، فيجوز هذا على من لا يستطيع الحذر والريبة فى ذلك.

وأما التزييف الساذج فمنشؤه الجهل، فيضع أحد الكتاب فى صدر الكتب الأغفال عنواناً يخيل إليه أنه هو العنوان الأصيل.

## ٢ - تحقيق اسم المؤلف:

إن كل خطوة بخطوة المحقق لابد أن تكون مصحوبة بالخذر، فليس يكفي أن نجد عنوان الكتاب، واسم مؤلفه في ظاهر النسخة أو النسخ، بأن المخطوطة من مؤلفات صاحب الاسم المثبت، بل لابد من إجراء تحقيق علمي، يطمئن معه الباحث إلى أن الكتاب نفسه صادق النسبة إلى مؤلفه<sup>(١)</sup>.

وأحيانا تفقد النسخة النص على اسم المؤلف، فمن العنوان يمكن التهدي إلى ذلك الاسم، بمراجعة فهراس المكتبات، أو كتب المؤلفات، أو كتب التراجم التي أخرجت إخراجا حديثا وفهرست فيها الكتب، كمعجم الأدباء لياقوت، وإنباه الرواة للقفطى، أو غير ذلك من الوسائل العلمية.

على أن اشتراك كثير من المؤلفين في عنوانات الكتب يحملنا على الحذر الشديد في إثبات اسم المؤلف المجهول، إذ لابد من مراعاة اعتبارات تحقيقية، ومنها المادة العلمية للنسخة، ومدى مطاوعتها لما يعرفه المحقق عن المؤلف، وحياته العلمية، وعن أسلوبه وعصره.

والمحقق إذا عثر على نصوص معقولة من الكتاب منسوبة إلى مؤلف معين في نقل من النقول كان ذلك مما يؤيد ما يرجحه، أو يقطع به في ذلك.

وأحيانا تدل المصطلحات الرسمية في الكتاب على ما يوجهنا إلى تعيين عصر المؤلف، يظهر ذلك لمن قرأ شيئا من هذه المصطلحات في صبح الأعشى للقلقشندي، والتعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمري.

وقد يعتري التحريف والتصحيف أسماء المؤلفين المثبتة في الكتب، فالنصرى قد يحرف

(١) انظر مقدمة تحقيقنا لكتاب (الأدب في الدين) المنسوب إلى أبي حامد الغزالي. طبعة كتاب اليوم العدد ٣٠٧ أبريل سنة ١٩٩٠.

وجاء في مقدمة لجنة تحقيق السيراني على سبويه ١ / ٣٠ .. أنه قد نسب إلى أبي سعيد السيراني هذه الكتب وليست له وهي :

١ - شرح الغريب المصنف.

٢ - شرح شواهد إصلاح المنطق (معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ٩٧ - ٥٥٣)

فالكتابان لأبي محمد يوسف السيراني .. لا، لأبي سعيد السيراني.. وقد أخطأ بروكلمان في نسبة هذين الكتابين للسيراني.. الأب. ويرجع هذا بالنسبة للكتاب الثاني إلى خطأ في مخطوط كبريلي ١٢٩٦ و ١٣٠٠ إذ يحمل اسم أبي سعيد مؤلفا، وتدل كتب الطبقات والمقتنيات، والاشارات المتأخرة دليلا قاطعا على كون الكتابين (لابن سعيد السيراني) وليسا (لأبي سعيد) نفسه.

٣ - الاغراب في جمل الإغراب :

هذا الكتاب ليس لأبي سعيد السيراني، بل هو لابن الأنباري.. وقد نسب هذا الكتاب للسيراني اعتمادا على ما جاء على غلاف مخطوط ليدن من هذه الكتاب. وقد حقق هذا القول الأستاذ سعيد الأفقاني عندما حقق هذا الكتاب ونشره في دمشق سنة ١٩٥٧م. ثم حققه عطيه عامر، في استوكهولم سنة ١٩٦٥م.

بالبصريّ، والحسن بالحسين، والخزّاز بالخزّاز، وكل ذلك يحتاج إلى تحقيق لا يكتفى فيه بمرجع واحد، فقد يكون ذلك المرجع فيه عين ذلك التصحيف، أو تصحيفاً آخر أقسى منه. فليس هناك بدٌّ من اجتلاب الطمأنينة في ذلك بالبحث العلمي الواسع. وما قيل في تزييف العناوين يقال أيضاً في تزييف أسماء المؤلفين، لذلك لم يكن بدٌّ من تنبيه المحقق لهذا الأمر الدقيق.

### ٣ - تحقيق نسبة الكتاب إلى مؤلفه:

ليس بالأمر الهين أن تؤمن بصحة نسبة أى كتاب كان إلى مؤلفه، ولا سيما الكتب الخاملة التي ليست لها شهرة، فيجب أن نعرض هذه النسبة على فهارس المكتبات والمؤلفات الكتبية، وكتب التراجم؛ لنستمد منها اليقين أن هذا الكتاب صحيح الانتساب.

وتعد الاعتبارات التاريخية من أقوى المقاييس في تصحيح نسبة الكتاب أو تزييفها<sup>(١)</sup>، فالكتاب الذى تحشد فيه أخبار تاريخية تالية لعصر مؤلفه الذى نسب إليه، جدير بأن يسقط من حساب ذلك المؤلف. ومن أمثلة ذلك كتابٌ نسب إلى الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ وعنوانه: « كتاب تنبيه الملوك والمكايد » منه صورة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٣٤٥ أدب ومن أبوابه: « لكن من مكايد كافور الإخشيدي ومكيدة توزون بالمتقى بالله » وحياة الأول بين سنتي ٢٩٢ و ٣٥٧ هـ والثاني بين ٢٩٧ و ٣٥٧ هـ وهذا كله بعد وفاة الجاحظ بعشرات السنين كما ترى .

كما أن دارس أسلوب الكتاب يحكم لأول وهلة بأن الجاحظ برىء منه وإنما حمل عليه حملاً!

### ٤ - تحقيق نصّ الكتاب:

وتحقيق نص الكتاب، أمر جليل، يحتاج من الجهد والعناية أكثر مما يحتاج إليه التأليف. وقدماً قال الجاحظ في كتابه (الحيوان): « ولربما أراد مؤلف الكتاب أن يصلح تصحيفاً، أو كلمة ساقطة، فيكون إنشاء عشر ورقات من حرّ اللفظ وشريف المعاني، أيسر عليه من إتمام ذلك النقص، حتى يرده إلى موضعه من اتصال الكلام»<sup>(٢)</sup>.

ويثور سؤال آخر: ما هي الأمور التي تعين على إقامة النص، وتجنب المحقق مزلق سوء الأداء؟

فأول تلك الأمور: التمرس بقراءة المخطوط، فإن القراءة الخاطئة، لا تنتج إلا خطأ. وبعض كتابات الأقدمين يحتاج إلى مراس طويل وخبرة خاصة، ولا سيما تلك المخطوط

(١) انظر مقدمة تحقيقنا لكتاب (رسالة في علم الموسيقى) للصفدي طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٦.

(٢) الحيوان للجاحظ ٧٩/١.

العتيقة التي لا يطرّد فيها النقط والإعجام، وكذلك تلك المخطوطات التي كتبت بقلم كوفي قديم، أو بقلم أندلسي أو مغربي، وللأندلسي والمغربي صورهما الخاصة ونقطها الخاص، ولكل كاتب بأحد القلمين لازمة لا تكون لأخيه، وتصوير يخالف تصوير أخيه.

وإذا تركنا ذلك وقرأنا في الخطوط المعتادة، وجدنا لكل كاتب من الكتاب طريقة خاصة تستدعي خبرة خاصة كذلك.

فنحن نجد من يقارب بين رسمى الدال واللام، فلا نشعر بالفرق بينها في النظر، أو في رسمى (العين) المعجمة (والفاء) كذلك، مع أن لكل منها ضابطاً خاصاً، ولكنّ الخبير بالخط يستطيع بخبرته أن يفصل بينها.

ونجد كذلك كثيراً من الكتاب الأقدمين يكتبون على طريقة خاصة بهم في الرسم الإملائي. وهذا يحتاج أيضاً إلى خبرة خاصة تكتسب بالمراتة، وبالرجوع إلى كتب الرسم القديمة، أعنى الإملاء.

ومما هو جدير بالذكر أن النقط تختلف طرائقه في الكتابة المشرقية والكتابة المغربية إلى وقتنا هذا، ولا سيما في الريف المغربي، إذ نجد الفاء عندهم إلى الآن تميز بنقطة واحدة من أسفلها وليس من أعلاها، على حين نجد القاف عندهم تميز بنقطة واحدة لكن في الأعلى لا في الأسفل. فهذا أمر يحتاج إلى يقظة ودراية.

وفي الكتابات القديمة أيضاً توضع بعض العلامات لتأكيد إهمال الحروف المهملة كالسين. نجد بعضهم يميز إهمالها بوضع ثلاث نقط من أسفلها، في مقابل تمييز إعجام الشين بوضع ثلاث من فوقها. وبعضهم يدل على إهمال السين بتركها كما هي، على حين يميز أختها الشين بوضع نقطة واحدة في أعلاها، وبعضهم يكتب تحت السين المهملة سينا صغيرة.

ومن الكتاب القدماء من يميز الحرف المهمل بوضع همزة في أعلاه أو تحته إشارة إلى «إهمال» أو «أهمل». ومنهم من يضع فوق المهمل خطاً أفقياً لحظر وضع النقط، أو يضع رسماً كالهلال الصغير من فوقه. ومنهم من يضع للإهمال علامة شبيهة بالرقم ٧

وبعض الكلمات التي تقرأ بالإهمال وبالإعجام معاً قد ينقط الحرف من أعلى ومن أسفل كذلك بنقطة، أو يضع فوق السين نقطاً ثلاثاً ومن أسفلها كذلك إشارة منه إلى جواز القراءة كالشميت والشميت: «الشميت»، وهو الدعاء بالسلامة من شر العتاس. ونحو ذلك: المضمضة والممصصة: «المضمضة».

وفي (الإعجام) بمعنى الشكل والضبط يحتاج المحقق إلى خبرة خاصة، وذلك في الكتب العتيقة. وكان أبو الأسود يسميه «النقط». يقول أبو الأسود اللؤلؤي لكاتبه القيسي:

إن رأيتني قد فتحت فمى بالحرف فانقط على أعلاه. وإن ضمنت فمى فانقط نقطة بين يدي الحرف، أى أمامه. وإن كسرت فمى فاجعل النقطة تحت الحرف. فإن أتبعته ذلك شيئاً من غنة - يعنى التنوين - فاجعل مكان النقطة نقطتين». وقد وجدنا تطبيق ذلك عملياً في المخطوطات الذاهبة في القدم من المصاحف وغيرها.

وفي الكتابة القديمة كثيراً ما تهمل كتابة الهمزة الواقعة في نهاية الكلمات الممدودة وغيرها، مثل ماء وساء ورداء، ومثل شىء وفى وضىء، تكتب: ما، وسما، وردا، وشى، وفى، وضى. وفى بعض الأحيان قد يسهلون الهمزة المتوسطة في مثل بير وذيب الخ..

ونجد كذلك أن الهمزة المكسورة التى التزمنا اليوم بكتابتها تحت الألف يكتبها بعض الأقدمين تحت الحرف أو فوقه أيضاً.

والشدة، وهى رأس الشين، نجدها في الكتابة القديمة حيناً فوق الحرف، وحيناً آخر تحته إذا كانت مقرونة بالكسرة.

والفتحة مع الشدة التى أَلفنا كتابتها فوق الشدة نجد كثيراً من الأقدمين لا يبالى بذلك، فما دامت الفتحة فوق الحرف فهى فتحة، سواء أكانت الشدة تحتها أم كانت فوقها، على حين نعدّ نحن الآن أن الفتحة الموضوعة تحت الشدة هى تعبير عن الكسرة لا غير.

ووضع الكسرة تحت الشدة فوق الحرف أمر لا يكاد يوجد في المخطوطات العتيقة.

ونجد في المخطوطات المغربية من يضع الضمة تحت الشدة فوق الحرف. وفى كثير من الكتابات القديمة توضع الشدة على الحرف الأول من الكلمة اللاحقة إذا كان مدغماً في آخر من نهاية الكلمة السابقة مثل: «بل ران» توضع شدة على الراء مع أنها في أول كلمة. وكذلك نحو: أهلكت مالاً لو قنعت به» بوضع شدة على لام «لو».

ومع هذا نجد أن شكل الشدة في الكتابة المغربية تكتب كالعدد (٧) شديدة التقويس. يقول شيخنا عبد السلام هارون<sup>(١)</sup>:

«وقد عثرت على مخطوط أندلسى عتيق، هو كتاب العققة والبررة لأبى عبيدة، وقد التزم فيه كاتبه نمطاً غريباً، هو وضع الحركات العلوية، وكذلك السكون، تحت نقط الإعجام. فكلمة «مُضَغَّة» كتب تحت نقطة الضاد سكوناً، كما وضع فتحة الغين تحت نقطة الغين لا فوقها.

وفي النسخة المغربية من كتاب المحتسب لابن جنى بدار الكتب المصرية وجدت الشدة

(١) مجلة مجمع اللغة العربية ج٤٩ سنة ١٩٨٤.

مع الفتحة يعبر عنها بعلامة فوق الحرف شبيهة بالعدد (٧) أما الشدة مع الضمة فإنها يعبر عنها بعلامة فوق الحرف شبيهة بالعدد (٨). وأما الشدة مع الكسرة فيعبر عنها بعلامة (٨) أيضاً، ولكن بوضعها تحت الحرف».

ومما يجب أن يعرفه المحقق ما يسمى بعلامة التمريض، وهي الحرف (ض) يوضع فوق العبارة التي هي صحيحة سليمة في نقلها مطابقة للأصل، ولكنها خطأ في ذاتها، وذلك لكي يخلى الكاتب الأمين عهده من خلل النص الذي نقله كما هو.

وهناك علامة تسمى علامة التثليث، وهي الحرف (ث) يوضع فوق الكلمة اقتباساً من كلمة التثليث، أي ضبط الحرف من الكلمة بثلاثة ضبوط: الفتح والضم والكسر، نحو: وَجَدَ وَجِدَ وَجِدْ، توضع النقط الثلاث فوق الواو إشارة إلى اللغات الثلاث. وقد وجدت هذه العلامة في مخطوطة الاشتقاق لابن دريد.

وعلاوة أخرى تدل على وجود البياض بالنسخة، أي فراغ لم تثبت فيه كلمة، وهي الحرف (ض) يكتب في موضع البياض إشارة إليه، وهذه العلامة مقبسة من كلمة «بياض». وقد وجدت هذا في نسخة مخطوطة من جمهرة أنساب العرب لابن حزم.

وكان للكتاب القدماء ذوق خاص في التحرز من تشويه الكتابة، فإذا أخطأ بزيادة بعض الكلمات، أشار إلى ذلك بوضع خط معقف الطرفين فوق الكلمة أو الكلمات الزائدة هكذا [٠٠٠]، أو أشار إلى ذلك بوضع دائرتين صغيرتين (٥٠٠٠٥) إحداها في بدء الزيادة والأخرى في نهايتها، أو أشار إلى ذلك بوضع نصفى دائرة (» «) أحدها في بدء الزيادة والآخر في نهايتها.

وإذا أخطأ بالتقديم والتأخير، وضع فوق الكلمتين المضطربتين أو الكلمات ألفين صغيرتين. وجدت في إحدى المخطوطات: (سنة ومائة إحدى) وقد وضعت ألف صغيرة فوق «ومائة»، وألف أخرى كذلك فوق كلمة «إحدى» أى اقرأ: سنة إحدى ومائة. وقد يوضع في هذا المجال أيضاً أى الإشارة إلى التقديم والتأخير مثل الحرفان (خ) و (ق) أو (خ)، و (م) أى تأخير وتقديم. أو الحرفان (م) و (م) إشارة إلى مقدم ومؤخر.

وهناك رموز واختصارات لبعض الكلمات أو العبارات، نجدها في المخطوطات، ولا سيما كتب الحديث، وهو سبق سبق به أسلافنا العرب، وقلدهم في ذلك الفرنجة وأسرفوا فيه إسرافاً، وذلك نحو:

س - سيويه	ثنا - حدثنا
لا يخفى - لا يخفى	ثى - حدثني
سم - ابن أم قاسم	أنا - أنبأنا أو أخبرنا
عم - عليه السلام	قثنا - قال حدثنا
صلعم - صلى الله عليه وسلم	ش - الشرح
رض - رضى الله عنه	الش - الشارح
ع - موضع، وقد استعمله صاحب	المص - المصنف. أى المؤلف.
القاموس ومن بعده.	ص - المصنف. أى المتن.
ج - جمع.	م - معتمد أو معروف.
جج - جمع الجمع.	وقد استعمله صاحب القاموس
ججج - جمع جمع الجمع.	ومن بعده بمعنى معروف.
ح - حينئذ. وهكذا.	إلخ - إلى آخره.
	اه - أنتهى

هذا هو بعض ما ينبغى معرفته مما يكتسب من التمرس بقراءة المخطوطات. وبنقص هذه الخبرة يقع المحقق في مزالق جمة تبعده عن الصواب وتجنح به إلى تشويه النصوص البريئة، وتمهد له سبيل العدوان عليها وهذا هو الأمر الأول الذى جعلت قضيته هي: التمرس بقراءة المخطوطات.

والحسُّ اللغوى، أمر ضرورى جداً في معالجة النصوص، فأنت حين تعالج نصاً تريد نشره أو الإفادة منه في موضوع تبحثه، وقد استغلق عليك فهم هذا النص، فأنت بين أمرين:

إما أن يكون العيب فيك أنت، لأن محصولك اللغوى قليل، لم يصل بعد إلى مرحلة تتمكن فيها من فهم هذا النص دلالة أو تركيباً.

وإما أن يكون النص الذى أمامك قد أصابه التصحيف أو التحريف، أو السقط والتغيير! والمحقق المنصف هو الذى يبدأ عادة باتهام نفسه، قبل أن يتهم النص الذى أمامه.

والمحقق الذى يبدأ عادة باتهام النص يرتكب من حماقات في تغييره ما يجعل مؤلفه يتململ في قبره.

وفهم النص هو الطريق إلى تحقيقه على الوجه الأمثل، ويتبين لنا: أن فهم النص، ضرورى جداً لتحقيقه على الوجه الصحيح، وأن اتهام المحقق نفسه بعدم الفهم يجب أن

يسبق اتهام النص بالتحريف والتصحيف، أو الخلط والاضطراب، وأن الإقدام على تصحيح النص بالباطل أمر لا يليق !!

أما الأمر الثاني: فهو التمرس بأسلوب المؤلف. ومعرفة لوازم ذلك الأسلوب، والوقوف على ما يؤثره من العبارات والألفاظ، وتعرف الأعلام التي يديرها في كتابه، والمعارف والحوادث التي يتكرر إيرادها، وهذا كله بعد تصور العصر الذي عاشه، والبيئة التي اشتملت عليه اشتمالاً، وبدا أثرها عليه في تفكيره وأسلوب تفكيره، فالإنسان وليد بيئته.

وأدنى صور التمرس بأسلوب المؤلف: أن يرجع المحقق إلى أكبر قدر يستطيع الحصول عليه من كتب المؤلف، وذلك ليزداد خبرة بأسلوبه وظروفه، وليقدر على أن يوجد ترابطاً بين عباراته في هذا الكتاب وذاك، فإن معرفة ذلك مما يعين في تحقيق النص، والتهدى بصدق إلى الصواب فيه.

والأمر الثالث: هو الإلمام بالموضوع والقضايا التي يعالجها المخطوط، حتى يمكن المحقق أن يفهم النص فهماً سليماً يجنبه الوقوع في الخطأ حين يظن الصواب خطأً فيحاول إصلاحه، أي يحاول إفساد الصواب.

وهذا الإلمام إنما يتحقق بدراسة بعض الكتب التي تعالج الموضوع نفسه، أو موضوعاً يقاربه أو يتصل به، ليستطيع المحقق أن يعيش في الأجواء المطابقة أو المقاربة أو المماثلة، وكى يكون على بصيرة نافذة.

والأمر الرابع: من وسائل تحقيق النص هو المراجع العلمية ذات العلاقة المباشرة بالمخطوط؛ ومعنى هذا أن المحقق إذا اجتمع لديه أقصى ما يمكن جمعه من مخطوطات الكتاب واستطاع قراءتها قراءة سليمة، وعرف أسلوب المؤلف، وألم إلاماً كافياً بموضوع الكتاب استطاع أن يمضى في التحقيق مستعيناً بالمراجع العلمية المباشرة التي يمكن تصنيفها على الوجه التالي:

١ - كتب المؤلف نفسه مخطوطها ومطبوعها.

٢ - الكتب التي لها علاقة نسب بالكتاب كالشروح والمختصرات والتهذيبات. فنسخة الشرح هي من جهة شرح وضبط وتقييد، ومن جهة أخرى نسخة ثانية من الكتاب تتكفل بتوضيح الغوامض وتجليه النص، وهو أمر له قيمته في مكملات التحقيق.

ويلي نسخة الشرح نسخة المختصر أو التهذيب، فإن كلا منها تلقى ضوءاً لا يستهان به في تحقيق النص.

ومن البديهي أن يرجع المحقق في ذلك إلى المخطوطات ما أمكنه ذلك، وألا يعتمد على المطبوعات الخالية من الروح العلمية المحققة.

٣ - وهناك ضرب آخر من المراجع التي لها علاقة حميمة بالكتاب، وهى الكتب التي اعتمدت في تأليفها اعتماداً كبيراً على الكتاب، وهذه كثيراً ما تحتفظ بالنص الأصلي للكتاب الأول.

كما يجب على المحقق الرجوع إلى المصادر التي نقل عنها المؤلف، ولزمه كذلك مراجعة المؤلفات المماثلة للكتاب الذي يحقّقه، فإذا كان يحقّق كتاباً في النحو - مثلاً - راجع الكتب المتخصصة في موضوعه، أو كتاباً في الطب لا يغفل التراث الطبى عند العرب.. وهكذا؛ فإن كل ذلك يعين على تحقيق النص على وجه العموم.

وقد كان القدماء من علمائنا يصنعون ذلك، ومراجعة المصادر المتخصصة في موضوع النص الذي نحققه، أمر ضرورى جداً لتصحيح ما قد يبدو في الظاهر صحيحاً لا غبار عليه، وهو في حقيقة أمره مصحّف محرّف !!

ويفيد كذلك أن يرجع المحقق إلى الاقتباسات المتأخرة عن الكتاب في بطون المؤلفات المختلفة، غير أن الحذر هنا ضرورى جداً، لأن بعض المؤلفين في اقتباساتهم ما لايهمهم من عبارات الكتب التي يستخدمونها، أو يعيدون صياغة العبارة أحياناً بما يتفق مع السياق الذي يضعونها فيه.

ولكن مهما كان من أمر الصورة التي آل إليها الاقتباس هنا وهناك فإنه يلقي الضوء على ما التبس من عبارة المخطوطة أو أصابة التحريف والتصحيح على أيدي النساخ، في مختلف الأزمنة.

والحواسى والشروح التي صنعها العلماء لبعض الكتب تعد في غاية الأهمية كذلك؛ لإلقاء الضوء على عبارات هذه الكتب، وتقويم ما أصابها من أوهام النساخ عبر العصور.

ولنضرب لذلك مثلاً بكتاب «ربيع الأبرار» للزمخشري؛ إذ نجد أنه من الكتب التي اعتمدت على كتب الجاحظ. ولا سيبا كتاب الحيوان، في زاوية معينة عند كلام الزمخشري على الحيوان، «فنجده» يقتبس نصوصاً كثيرة بأعيانها وألفاظها منه. وقد أعاننى هذا كثيراً عند تحقيقى لكتاب «ربيع الأبرار» للزمخشري.

والكتاب نفسه - أعنى ربيع الأبرار - من الكتب التي اعتمدت على كتاب البيان والتبيين للجاحظ أيضاً، فنجد كتاب الزهد فيه، ونجد نصوص الخطب والوصايا التي تحتل مساحة كبيرة من ربيع الأبرار، جلها ومعظمها في كتاب البيان والتبيين. ويعتمد أيضاً على كتاب الحيوان للجاحظ خاصة في الهوام والحشرات.

٤ - ومن المراجع المعينة على إقامة النص وتجنب المحقق مزائق سوء الأداء عكس

المراجع السابقة، وهى المراجع التى استقى منها المؤلف. فإذا تهدي المحقق إلى منابع والموارد التى استمدَّ منها المؤلف تأليفه كان ذلك معوَّناً له على إقامة النص. وكان بعض المؤلفين القدماء ينصّون فى صدور كتبهم أو فى أواخرها، على المراجع التى استقوا منها كما نفعل نحن الآن فى مناهج تأليفنا للكتب الحديثة، ويظنه البعض منّا أن ذلك من مستحدثات العصر الحديث مجازة للأوربيين، مع أنها منهج قديم عند المؤلفين العرب.

فنحن نجد ابن فارس (ت - ٣٩٥) فى مقدمته لكتابه «مقاييس اللغة» ينص على مراجعه التى اعتمد عليها فى كتابه، وهى: العين للخليل، وغريب الحديث ومصنف الغريب، وكلاهما لأبى عبيد القاسم بن سلام، والمنطق لابن السكيت، والجمهرة لابن دريد. ويقول ابن فارس بعد أن سردها: «فهذه الكتب الخمسة معتمدنا فيما استنبطناه من مقاييس اللغة. وما بعد هذه الكتب فمحمول عليها وراجع إليها، حتى إذا وقع الشئ النادر نصصناه إلى قائله إن شاء الله».

وابن منظور (ت ٧١١هـ) فى مقدمة لسان العرب فعل ذلك أيضاً، وسرد لنا من تلك المراجع خمساً رئيسية أيضاً هى: التهذيب للأزهري، والمحكم لابن سيده، والصحاح للجوهري، وأمالى ابن برى على الصحاح، والنهاية فى غريب الحديث لابن الأثير.

وابن حجر (ت ٨٥٢) فى مقدمته لكتابه «تهذيب التهذيب» نصّ على كتاب الكمال للمقدسى، وتهذيبه للمزى، والكاشف للذهبي، وتهذيب التهذيب له أيضاً، وما جمعه مغلطاً على تهذيب الكمال.

وكذلك السيوطى (ت ٩١١) فى «بغية الوعاة» ذكر فى مقدمته طائفة كبيرة من المراجع التى اعتمد عليها والتى أربى عدد مجلداتها على ثلثمائة مجلد.

وفاقمهم جميعاً فى ذلك عبد القادر البغدادي (١٠٣٠ - ١٠٩١ هـ) صاحب خزانة الأدب الذى سرد فى مقدمتها أسماء مئات من المراجع التى اعتمد عليها وساقها مرتبة ترتيباً علمياً على حسب الفنون وفروعها. وكذلك تاريخ الإسلام، للذهبي.

وقد يكشف المحقق النقب عن كتاب يعتمد اعتماداً كلياً أو جزئياً على مؤلف آخر. يقتبس منه دون النص فيه على ذلك، كما حدث ويحدث فى عصرنا هذا. يقول شيخنا المرحوم عبد السلام هارون: «وأذكر هنا ما عثرت عليه عند تحققي لشرح المرزوقى لحماسة أبى تمام. إذ وجدت كثيراً جداً من نصوصه بالنص واللفظ، أو بالاتجاه الواحد، وجدتها فى شرح التبريزى للحماسة نفسها. والذى يوازن بين الشرحين يجد أن التبريزى المتأخر عن المرزوقى بنحو ثمانين عاماً، وفاة المرزوقى سنة ٤٢١ و وفاة التبريزى ٥٠٢، يجد أنه فى معظم شروحه كان كلاً وعالة على المرزوقى.

وكما صنع التبريزي - غفر الله له - هذا في شرحه للحماسة، أدار وجهه مرة أخرى إلى شرح ابن الأنباري للقوائد السبع الطوال، وظل يرتشف من معينه، ويقتبس من كنوزه في شرحه هو للقوائد العشر. ورب ضارة نافعة، إذ كان انتفاعي بهذا الشرح المقتبس بعامل السطو، معيناً لى ونافعاً لى في كثير من مشاكل تحقيق شرح ابن الأنباري». والتاريخ لا يغفل عن أمثال هذه السطوات العلمية.

ومن الذين اتهمهم التاريخ بالإغارة على كتب غيرهم، وإن كنت أجل قدره عن ذلك: الإمام عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسى، عثرت على نص نادر في بغية الرعاة للسيوطى<sup>(١)</sup> عند ترجمته لأحمد بن محمد بن أحمد المرسى المتوفى سنة ٤٦٠هـ يقول فيه: «ونسب إليه ابن خلصة شرح أدب الكاتب المسمى بالافتضاب. وذكر أن ابن السيد البطليوسى أغار عليه - أى على الكتاب - وانتحله». وأقول: لكن لا تزال هذه التهمة في ذمة التاريخ حتى نرى الكتابين معاً<sup>(٢)</sup>.

والأمر الخامس: مما يعين على صحة الأداء هو الرجوع إلى الكتب المعاصرة للمؤلف التي تعالج نفس موضوعه أو تعالج موضوعاً قريباً منه، فمما لا ريب فيه أن الأجواء العلمية المتعاصرة تلقى أصدق الأضواء وأعلاها على تحقيق النص، إذ أن للمعاصرة أثراً واضحاً في الأفكار وفي الألفاظ والأساليب، كما تعين على تصحيح الأعلام والوقائع التي تعاصر المؤلفين.

والأمر السادس: من الأمور التي تعين على صحة الأداء ولا يستطيع المحقق فراقه أو مجانبته هو المراجع اللغوية، إذ هى المقياس الأول الذى تسير به صحة النص، والدليل الأول كذلك الذى يقودنا إلى حسن فهم النص وتصوره. فأحياناً يحكم المحقق العجلان الذى فارقت الأناة والدقة، على نص من النصوص أنه محرف، أو أنه ذاهب في الغموض، على حين تنطق نصوص المراجع اللغوية أنه صحيح غاية الصحة، أو أن من اليسر بمكان أن نزيح ما بدا للوهلة الأولى عسر فهمه أو صعوبة إدراكه. ولا يكفى في هذه المهمة ضرب واحد من المراجع اللغوية.

ويمكننا أن نصنف المراجع اللغوية التي يستطيع المحقق أن يطرق بابها إلى خمسة أصناف: الأول: معاجم الألفاظ، وأعلاها وأوثقها وأيسرها جميعاً، هو لسان العرب لابن منظور، وتاج العروس للزبيدي، الذى تضمن جميع نصوص القاموس المحيط وتكملاته.

(١) بغية الرعاة ١٥٧.

(٢) نشر هذا الكتاب في الهيئة المصرية العامة للكتاب محققاً بواسطة الأستاذين: مصطفى السقا، والدكتور حامد عبدالمجيد. وتأليف ابن السيد البطليوسى وذلك في ٣ أجزاء.

ومن معاجم الألفاظ: معاجم المفردات الطبية القديمة، كالمفردات لابن البيطار، والمعتمد لابن رسول، وتذكرة داود الأنطاكي. ومن المعاجم الحديثة في المفردات الحيوانية معجم الحيوان للفريق المعلوف، وفي المفردات النباتية معجم أحمد عيسى، ومعجم الألفاظ الزراعية للأمير الشهابي.

ومنها معاجم المصطلحات العلمية، كمفاتيح العلوم للخوارزمي، وكليات أبي البقاء، وأوسعها وأشملها جميعاً كتاب «كشاف اصطلاحات الفنون» للتهانوي.

كما أن هناك معاجم وضعها بعض فضلاء المستشرقين، استدرکوا بها على المعاجم العربية القديمة، ومنها معجم دوزي اللغوي، ومعجمه الخاص بأسماء الملابس.

وهذه المعاجم الأخيرة تفيدنا في تحقيق النصوص الواردة في الكتب التي كان تأليفها في عصور متأخرة.

الثاني: معاجم المعاني، وأعلاها كما هو معروف كتاب المخصص لابن سيده، وفقه اللغة للتعاليبي.

الثالث: معاجم الأسلوب، وأعلاها كتاب جواهر الألفاظ لقدامة بن جعفر، والألفاظ الكتابية للهمذاني.

الرابع: كتب المعربات، وفي قمته قديماً كتاب المعرب أو المعرب للجواليقي، وشفاء الغليل للشهاب الخفاجي. وفي قمته حديثاً: كتاب الألفاظ الفارسية المعربة لأدى شير.

الخامس: معاجم اللغات التي تمت بصلة وثيقة إلى العربية، كالفارسية والعبرية والسريانية، واللاتينية والأسبانية.

وهذه المعاجم تعد مجالاً صحياً لتحقيق الكلمات المعربة التي يصيها التحريف في لفظها أو في معناها، فتكون هي حَكماً في تصحيح جسم الكلمة، أو تصحيح دلالتها ومعناها.

فيذكر شيخنا عبد السلام هارون قائلاً:

«ولست أنسى تجربتي في تحقيق كلمة وردت محرفة في جميع مخطوطات كتاب الحيوان، وهي كلمة «كنعان» التي وردت في الجزء السادس في ص ٤٥٢ ضمن خبر ساقه الجاحظ، ونصه:

وخلا معاوية بجارية له خراسانية، فلما هم بها نظر إلى وصيفة في الدار. فترك الخراسانية وخلا بالوصيفة ثم خرج. فقال للخراسانية: ما اسم الأسد؟ - قلت: وكأنه كان يريد أن يلقب نفسه بذلك - قالت: كنعان. فخرج وهو يقول: ما الكنعان؟ فقيل له: الكنعان: الضبع. فقال: ما لها قاتلها الله أدركت بثأرها».

وقد عَقَّبَ الجاحظ على ذلك بقوله: «والفُرس إذا استقبحت وجه الإنسان قالت: «روى كنعان».

فلجأت حينئذ إلى المعجم الفارسي الإنجليزي لاستينجاس في باب الكاف جميعه. انظر اللفظ الفارسي المقارب لكنعان، والذي يؤدي في الوقت نفسه معنى الضبع. وبعد لأي شديد وتقليب كثير وترقب طويل لكلمة الضبع الإنجليزية، وهي: Hyena وجدت أن اللفظ الفارسي الذي ينطبق عليه تفسير الضبع ويقارب «كنعان» هو لفظ: «كفتار».

وكثيراً ما كنت ألبأ إلى هذا المعجم الوثيق في تحقيق الألفاظ الفارسية المعربة، أو المشتركة، أو في تحقيق مدلولاتها ومعانيها<sup>(١)</sup>.

السادس: ومن المراجع التي لا يستغنى المحقق عنها في تحقيق العبارات والأساليب: المراجع النحوية. وأعلى المتداول منها وأجمعها هو كتاب «مع الهوامع شرح جمع الجوامع، كلاهما للسيوطي. وكذلك شرح ابن يعيش على مفصل الزمخشري، وحاشية الصبان على شرح الأشموني للألفية.

السابع: وليس يستغنى المحقق عن الرجوع إلى المراجع العلمية الخاصة بمادة الكتاب أو موادّه، وهذه تخرج عن نطاق المحصر، إذ أن لكل كتاب أو مخطوط يكون موضع التحقيق، ضروباً شتى من المراجع التي يتطلبها.

فكتاب الأدب يحتاج إلى مراجع الأدب والتاريخ والبلدان على اختلاف ضروبها، وإلى المراجع الدينية بمختلف أنواعها، وكذلك مراجع الشعر بأنواعها من الدواوين الجاهلية والإسلامية، وكتب النقد القديم والبلاغة والعروض والقافية.

كما أن كتاب التاريخ يفتقر إلى المراجع من كتب الأدب والبلدان، وسائر ما أسلفت من أنواع المراجع؛ فإن من المعروف أن نتاج الثقافة الإسلامية متواسح الأنساب، متداخل الأسباب. وحذق المحقق وسعة اطلاعه يهديانه بلا ريب، إلى الوقوع على المراجع التي يتطلبها الكتاب.

والذي أريد أن أقوله: إن تحقيق نصوص التراث محتاج إلى مصابرة ومثابرة، وإلى يقظة وانتباه عظيمين، وإلى سخاء في الجهد الذي لا يضمن على الكلمة الواحدة بيوم واحد، أو أيام معدودات.

\* \* \*

## ثقافة المحقق ، والمواد المساعدة على التحقيق

وليلاحظ قبل كل شيء، أن محقق النص لا يستطيع أن يستغنى عن طائفة من العلوم المساعدة، فهو مضطر مثلا إلى الأمور الآتية:

أولا: أن يتقن (فقه اللغة) فكيف يمكن أن يكون محققا للأدب ولا يتقن لغة الأدب التي يريد أن يحققها.

وهو مضطر أيضا إلى أن يتقن علوم النحو، والصرف، والبيان، والتاريخ، وإلى أن يتقن بنوع خاص مناهج هذه العلوم كلها، ثم هو مضطر فوق هذا كله إلى أن يتقن مناهج البحث نفسها، فيعرف كيف يستكشف النص، فإذا استكشفه فكيف يقرؤه، فإذا قرأه فكيف يحققه ويضبطه.

وأيا ما كان الأمر فإن دارس المخطوطات لينشرها، أوليفيد منها باحثا، في حاجة إلى أن يواجهها متسلحا بالثقافة الواسعة، وعلى نحو خاص بمعرفة تطور الخط العربى وألوانه عبر العصور المختلفة، فإذا كانت بعض المخطوطات قد كتبت في لغة واضحة، فإن بعضها الآخر وصل إلينا في رسم يعسر تبيين ملامحه إلا على خبير مقتدر، وإذا جاءنا بعضها سلبيا معاقف، فبعضها الآخر عدت عليه الأرضة أو الرطوبة فتأكلت هوامشه وتمزق جانب منه، ويتطلب رأب صدعه وإقامة نصه معاناة وصبرا.

ويقتضى الأمر كذلك أن يكون المحقق مدركا لتطور دلالة الألفاظ، فنحن لانستطيع فهم نص قديم فهما جيدا ومستقبيا إلا إذا فُسر على أساس معانى الألفاظ والقواعد النحوية التي كانت سائدة في العصر الذى كتب فيه.

ويجب أن يكون المحقق على معرفة بظان البحث، واطلاع على البرامج، وكيفية الاهتمام إلى النصوص التي تتصل بالكتاب المراد تحقيقه، مع خبرة بالفن الذى يدور حوله الكتاب، حتى لا يظهر شيء مما يحققه بادی النقص مملوءا بالتحريف.

وأى قيمة لكتاب يكون محرف الكلمات! مختل الأوزان في الشعر، أو فاسد الضبط أو كثير الغموض؟!

ويقتضى العمل كذلك المعاشة للمخطوط الذى يراد تحقيقه، يقول كراتشكوفيسكى: «الاشتغال بدراسة المخطوطات يحمل في ثناياه السرور والحزن معا، شأنه في ذلك شأن أى

شئ في الحياة، إلا أن المخطوطات غيرورة، فهي تطمع داتها في أن تستحوذ على كل اهتمام الإنسان، وعندئذ فقط تعرض أسرارها وتكشف عن روحها، وروح أولئك الناس التي كانت مرتبطة بهم، أما للمتطلع العابر، فإنها تظل خرساء لاتنبئ عن شئ، وهي كأزهار (الست المستخبية) تقفل أوراقها عندما تلمس بدون حذر! وهي لا تفضى بشئ إلى من يتطلع إليها بنظرة موحشة ملولة! وهو بالتالي لا يرى أى شئ فيها، اللهم إلا تلك السطور المتشابهة غير الواضحة، والتي تكون عادة على ورق ردىء رخيص، يحتويها جلد بال ممزق، ولكن المتخصص في دراسة المخطوطات تظهر له أفراح الأعياد أيضاً، ساعة يتلألاً أمامه أى اكتشاف يلمع في البداية كشرارة صغيرة، بل يظل المتخصص خائفاً من أن يكتشف أن هذه الشرارة ليست إلا خداع بصر<sup>(١)</sup> هذا هو ما قاله كراتشكوفسكى، المستشرق الروسى وأحد أساطين التحقيق في القرن العشرين.

ثم يقول: وتحقيق نسبة المخطوط إلى مؤلفه تحتاج إلى دراسة مستفيضة للمؤلف ومعايشة للنص، لأنه بالرغم من أننا نعلم جيداً أنه في المخطوطات تضيع منها في الواقع أوراقها الأولى والأخيرة بصفة خاصة - وذلك تبعاً لنظام خزنها في وضع منبطح وهو المتبع في الشرق، وليس في وضع قائم كما هو متبع لدينا، فإن تجديد المخطوط يحمل دائماً على التساؤل عن أصلاته، وكثيراً ما كان يحدث أن مالك المخطوط أو أى تاجر للآثار القديمة يقوم بتقليد بداية ونهاية المخطوط حتى يعطى له شكلاً أكثر قدماً، أو ينسبه إلى أى مؤلف مشهور<sup>(٢)</sup>.

ولعل من الأمثلة على ذلك: أن السيوطى لم يذكر واحداً ممن ترجموا له كتاباً في غلطات العوام غير أن ريزتانو ذكره في قائمته، بناء على ما ذكر في فهرس المخطوطات المصورة بالجامعة العربية، كما نشر في مجلة معهد المخطوطات (نوفمبر سنة ١٩٥٧ ص ٢٢٠) أن في مكتبة طلعت بدار الكتب المصرية نسخة من هذا الكتاب أيضاً، ويصف فهرس المخطوطات المصورة النسخة تحت رقم (١٨٩) لغة بقوله: «غلطات العوام: تأليف جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ نسخة كتبت سنة ٩٨١ كيربلى ١٢٤٠، ٢٨ ورقة ١٢ × ٢٠ سم».

ومن نسخة كيربلى هذه مصورة بالمجمع اللغوى المصرى، عن معهد المخطوطات برقم ٦٩٢ وبفحص المحقق لـ«غلطات العوام» تبين له أنها نسخة أخرى من كتاب (تقويم اللسان) لابن الجوزى وقد كتب في آخرها خطأ «قد انتهت هذه الرسالة الموضوعية في أغلاط العوام لجلال الدين السيوطى بعد العصر من يوم السبت الحادى عشر من شهر ربيع

(١) كراتشكوفسكى. مع المخطوطات العربية ص ١٧٣.

(٢) كراتشكوفسكى. مع المخطوطات العربية ص ١٦٦.

الأول من شهور سنة إحدى وثمانين وتسعمائة. وبأولها في صفحة العنوان (غلطات العوام للسيوطي) أما نسخة مكتبة طلعت فتوجد فيها برقم (٣٤٨ لغة) وتصفها البطاقات بما يلي : (أغلط العوام للسيوطي) ضمن مجموعة في مجلد مخطوطة بقلم تعليق معتاد. أوائل الكتب محلى باللزورد، وبأقيها بمجدول بالذهب والألوان، وبها تقييدات في ١٣٥ ورقة. ومسرتها ٢١ سطرًا في حجم الثمن.

يقول المؤلف لكتاب (لحن العامة والتطور اللغوي) وقد فحصت هذه المجموعة فتيين لي أنها تضم أربعة كتب هي :

- درة الغواص للحريري ١ ب - ٨٤ أ.

- تكملة درة الغواص للجواليقي ٨٤ ب - ١٠٠ ب.

- تقويم اللسان لابن الجوزي ١٠١ ب - ١٢٥ أ.

وهو - أي الكتاب - بدون عنوان وفي خاتمه ما يلي : «قد انتهت هذه الرسالة الموضوع في أغلظ العوام لجلال الدين السيوطي بعد العصر من يوم الجمعة السادس والعشرين من شهر ذي الحجة سنة سبع وثمانين وتسعمائة.

- التنبؤ على غلظ الجاهل والنبه لابن كمال باشا ١٢٦ ب إلى آخر الكتاب، وهو بدون عنوان كذلك، غير أن المؤلف سماه في صفحة ١٢٧ ب، وهكذا نرى أن ما ينسب للسيوطي من أغلظ العامة ليس في مخطوطيه إلا نسخة جديدة من كتاب «تقويم اللسان» لابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ.

ولعل السبب في نسبة هاتين النسختين خطأ إلى السيوطي أنها ربما نقلتا عن نسخة بخط السيوطي من كتاب «تقويم اللسان» ضاع منها العنوان وأمهرها السيوطي بتوقيعه في آخرها. فترتب على ذلك أن وهم النساخ فنسبوا ما نسخوه منها في عامي ٩٨١ هـ / ٩٨٧ هـ إلى السيوطي رحمه الله تعالى في مخطوطتي (كبريلي) و(طلعت) السابقتين.

ومن المعروف أن الجاحظ كان يؤلف الكتب وينسبها إلى غيره حتى تروج وتشتهر، فلا بد للمحقق من الثقافة الواسعة بالمؤلف وبمعجمه اللغوي وبالعصر الذي كتب فيه الكتاب، حتى يستطيع أن يرد الكلمات إلى أصولها.

ولم يكن الوراقين كلهم من الثقات وأهل العلم والفضل، وإنما كان من بين المحترفين منهم من يتصف بالكذب والاختلاق، ولا يلتزمون الأمانة العلمية فيما ينسخون، ولا يتحرجون أن يضيفوا إلى الناس ما ليس فيهم، أو ما ليس لهم، ولك أن تنظر مقدمة تحقيقنا لكتاب (الأدب في الدين) المنسوب إلى أبي حامد الغزالي وبالمثل أيضا كتاب (نقد النثر) فقد نسبه المحققان:

الدكتور طه حسين، وعبد الحميد العبادي، إلى قدامة بن جعفر وهذا بسبب تدليس في العنوان وقد حقق هذا الكتاب مرة ثانية وتبين أنه جزء من كتاب (البرهان في وجوه البيان) لأبي الحسين بن وهب الكاتب. وقد نشر في بغداد سنة ١٩٦٧م بتحقيق الدكتور أحمد مطلوب، والدكتورة خديجة الحريشي، ثم أعاد نشره مرة ثالثة المرجع الدكتور حفنى شرف في القاهرة سنة ١٩٦٩م.

وقد كان بعض الوراقين يتزيدون، ويضيفون إلى الكتب ما ليس فيها، حتى اشتهر بعضهم بالكذب والاختلاق، ومن الكتب التي لم تسلم من عبثهم (معجم العين) الذين زادوا فيه، وأفسدوه، وما يذكره الأصمعي (ت ٢١٥هـ) أنه أملى ببغداد كتابا في النوادر، فزيد عليه فيه ما ليس من كلامه، وأن الكتاب عُرض على الأصمعي، فقال: ليس هذا كلامي كله، وقد زيد فيه عليّ فإن أحببتهم أن أعلم على ما أحفظه منه وأضرب على الباقي فعلت، وإلا فلا تقرأوه، قال سلمة بن عاصم: فأعلم الأصمعي على ما أنكر من الكتاب، وهو أرجح من الثلث، ثم أمر فنسخناه له<sup>(١)</sup> وكان بعض الوراقين لا يتورعون أن يخلطوا الكتب وينسبوا إلى عالم مشهور، لتروج فتعمر جيوبهم.

وهذا الجانب المعتم عند الوراقين لا يمثل إلا قطاعا صغيرا إذا قيس إلى الصورة الكبيرة المشرقة لهم.

ويبدو في تاريخ الأدب العربي أن كتبا برمتها كانت تنتحل وذلك بتغيير الاسم فيحل اسم المنتحل محل اسم المؤلف الحقيقي، فقد ذكر ابن النديم في (الفهرست) أنه قرأ في كتاب بخط ابن الجهم ما هذه حكايته.

كتاب المدخل، لسند بن عليّ وهبه لأبي معشر، فانتحله أبو معشر لأن أبا معشر تعلم النجوم على كبر، ولم يبلغ عقل أبي معشر صنعة هذا الكتاب ولا التسع المقالات في الموالي، ولا الكتاب في القرانات المنسوب إلى البازيار، هذا كله لسند بن عليّ<sup>(٢)</sup>.

وللقارئ أن يستخرج من هذا النص مقدار ثقافة ابن الجهم فيرى أنه رجل ناقد ذواق، يستطيع إعادة الكتب إلى مصادرها، ويعرف أساليب الكتاب ويحكم علمه وعقله وذوقه، وهذا هو ما يسمى عند الغربيين بنقد المصدر.

وكذلك كان تزوير الوثائق التاريخية لصالح فئات، أو لإلحاق الضرر بها فاشيا على نطاق واسع بين الناس، وقد اعتبر علماء المسلمين أن من واجبهم أن يضعوا مبادئ وقوانين لمعرفة الصحيح من المزور. فقصة الخطيب البغدادي حين فضح الوثيقة التي منح يهود خيبر بموجبها

(١) تهذيب اللغة ١ / ١٥ .

(٢) فهرست ٣٨٤ .

امتيازات خاصة، وأظهر أنها مزورة أمر مشهور، أكسب البغدادى شهرة واسعة باقية، وتجدر الإشارة هنا إلى أن الخطيب البغدادى لم يصف بذلك شيئاً جديداً، بل فعل ما كان يفعله العلماء المسلمون<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

لعل بعد هذا يحق لى أن أقول: إن تحقيق التراث مسلك وعمر، ومركب بعيد المنال، لا يستطيع أن يعانیه إلا من آنس في نفسه سلامة الذوق، وصفاء النفس، وغزارة الاطلاع، ووفرة المحصول، وأن يكون بصيراً بالأساليب العربية في مختلف مناحيها، عارفاً بموارد الكلام ومصادره، فطنا لصحيحه وفاسده، صادق الحدس في مواضع الخطأ والنقص، كيساً في معالجة الأساليب المضطربة، وكشف النقاب عن الألفاظ المستعجمة، إلى جانب أن تكون له مشاركة في الكتاب الذى يحققه، وخبرة بمصادره وأهدافه ومراميه، بعد أن يكون أميناً مخلصاً حريصاً على سلامة العربية مما يطرأ عليها من التحريف والتصحيف والإيهام.

وأعتقد - ويشاركني الكثيرون رأيي هذا - أن عمل المحقق قد يكون أشق من عمل المؤلف، لأن المؤلف حرٌّ طليقٌ من كل قيد، يكتب ما شاء وكيفما شاء، ويعبر عن آرائه وأحاسيسه بالطريقة التي يريد، على حين أن المحقق يقف على أرض المؤلف لا يتزحزح عنها، ويضطر المحقق أن يتقمص شخصية غيره، ويعبر عن آراء سواه، ويظل رهيناً في محبس الفكرة، مقيداً بسلاسل اللفظ والمعنى.

فمؤرخ الأدب محتاج إلى من يستكشف له النصوص ويحققها ويفسرها ويعدها للدرس والفهم، وإذا كان المؤرخ لا يستطيع أن ينهض وحده ببعض هذا العبء، فلا بد من أن ينهض بهذا العبء قبله هؤلاء المحققون الذين يتفوقون حياتهم في دور الكتب، ويرون أنفسهم أسعد الناس يوم يظفرون باستكشاف نص أو تحقيقه وفهمه.

ومن واجب المرء الذى يتعرض لمهمة التحقيق أن يحيط علماً بكل شيء: فلسفة، وتاريخ، وعلم أجناس، وجغرافيا، وعلوم طبيعية، ولغة، ونحو، ودلالة ألفاظ وتطورها.. إلخ، لأنه - لاشك - سوف يصادف أثناء قراءته للنصوص أشياء من هذا القبيل.

ثانياً: من المواد التي تساعد على التحقيق: القدرة على قراءة المخطوط، فلنفرض أن لدينا «مخطوطة» في الأدب مثلاً فكيف نستفيد منها إذا كنا لا نستطيع قراءتها؟

إن الوثائق المصرية القديمة المكتوبة بالحروف الهيروغليفية، ظلت حروفاً ميتة حتى جاء شميليون، ولذلك إذا أراد المرء القيام بالتحقيق، فمن الحكمة أن يدرس كيف يقرأ

(١) روزنتال : مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمى.

المخطوطات، فالذى يتعرض للتحقيق دون معايشة للخطوط القديمة وتطورها يمكن تمييزه من حين إلى آخر بارتكابه أخطاء فاحشة في القراءة. أما المتمرسون بقراءة هذه الخطوط فقليلًا ما يخطئون في القراءة، فالقدرة على قراءة الخطوط (Paleography) من العلوم الأساسية لدراسة المخطوطات، منذ أقدم العصور حتى العصر الحديث، فالمحقق يصادفه أنواع مختلفة من الخطوط، تبقى كالطلاسم حتى يتدرّب على قراءتها، ودراسة هذه الخطوط تحفظ له الوقت وتجنبه الوقوع في كثير من الخطأ.

والخطوط العربية لها أشكال عدة منها: الطومار، ومنها النسخى، والرقعة، والكوفي، والفارسي، والتعليق، والنستعليق، والمغربي، والأندلسي، والسوداني والغبار، وتوجد أنواع لكل هذه الخطوط في المخطوطات العربية، ويحتاج قراءة بعضها إلى التعليم والتدريب.

ولنفرض مرة ثانية - أن المخطوطة أمكن قراءتها لكن القارى لم يفهما، فستظل أيضًا بلا فائدة، فكثير من الأشعار الجاهلية وغيرها يمكن قراءتها، ولكن لا يمكن فهمها، فكم من الأخطاء تقع للمحقق لسوء فهمه، مع وضوح لمن فهم، وما أكثر الأخطاء التي تقع لسوء الفهم، أو التفسير التقريبي للنصوص الصريحة من جانب محققين لا يجسسون اللغة، والدلالات اللفظية الدقيقة وتطور الألفاظ كما قلنا. إذن فعلم فقه اللغة كما ذكرنا أو ما يسمى بالفولولوجيا (Philology) من العلوم التي تساعد المحقق، بل هو من العلوم الضرورية له، إذ يتوقف فهم النصوص التاريخية والأدبية على معرفة لغة العصر التي كتبت به، لأن اللغة كما نعرف كائن حتى ينمو ويتطور ويتغير تبعًا لظروف الزمان والمكان، ولتغير الإنسان واختلاط الثقافات، فكم من الألفاظ اليونانية والفارسية وغيرها دخلت العربية بل إن لكل شاعر أو كاتب معجزة اللغوى الخاص به تقريبًا، وبه تعرف خصائصه، وقد تدل كلمة واحدة على معانٍ متفاوتة أو مختلفة أو متضادة<sup>(١)</sup>. ولذلك يجب على المحقق أن يعرف تطور دلالة الألفاظ، حتى لا يفسر ما يقرأ على غير حقيقته، فبعض التراكيب لم يستعمل إلا في بعض الأماكن وفي بعض العصور.

ثالثًا: لنفرض أن المخطوطة مقروءة ومفهومة، فليس من التحقيق أخذها بعين الاعتبار قبل التحقق من صحتها في نفسها، وصحة نسبها إلى صاحبها بصورة قاطعة، وهذا هو ما يسمى بنقد المصدر.

ويحتاج المحقق في هذه الحالة إلى الرجوع إلى أسماء الكتب التي ألفها المؤلف المنسوب إليه المخطوطة في التراجم المعقودة له، وفي كتب التعريف بالكتب مثل فهرست ابن النديم

(١) انظر الدكتور إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ.

وكشف الظنون لحاجي خليفة، وفي كتب المؤلف الأخرى وفي مقدمة الكتاب نفسه. فبعض المؤلفين يذكرون عناوين كتبهم صراحة في مقدماتها، وبعضهم الآخر يذكرها تلميحاً بين مجموعة من الأسجاع الحمادة لله، أو المصلية على الرسول الكريم، أو الداعية، فإذا وجدنا عنوان الكتاب نصاً أو قريباً من النص، أو معنى، معزواً إلى المؤلف تمت أولى خطوات التوثيق، أما إذا لم نجد فلا يقطع ذلك بعدم صحة نسبة الكتاب إلى المؤلف، فما أكثر ما وجدنا للمؤلفين من كتب لا تختلف في صحة نسبتها إليهم على الرغم من عدم عثورنا على من ينسبها إليهم من الكتاب والمؤرخين.

فلدينا خطوات أخرى للتوثيق، فنحن نستطيع عن طريق دراسة سند رواية الكتاب - إن ذكر في المخطوط - ودراسة تراجم الرواة نستطيع معرفة العصر الذي ألف فيه، فإن لم تذكر روايته كان علينا أن نجمع أسماء الرجال المذكورين فيه، وخاصة من تدل الدلائل على أن المؤلف التقى بهم أو عاصروهم فإذا عرفنا عصرهم كان هو عصر المؤلف.

#### وعلم الوثائق أو علم الدبلوماسية (Diplomatics):

من العلوم المهمة لدراسة المخطوطات ونسبتها إلى عصرها، فينبغي أن نعرف نوع المداد في الكتابة، والقلم الذي كتب به المخطوط، وأنواع الورق المستعمل وخصائصه مثل: العلامات المائية، والألياف التي تتضح عند تعريض الورق للضوء. واليوم تستخدم بعض الوسائل العلمية لفحص الخط، والحبر، والورق، وكذلك يمكن بواسطة المجهر أو التحليل الكيميائي معرفة عمر الورق، وأحياناً يمكن الاستعانة ببعض أنواع الأشعة الحمراء، والبنفسجية، لإظهار الخطوط غير الواضحة أو المطموسة أو المغيّرة عمداً.

وعلى المحقق أن يستوثق من تاريخ نسخ المخطوط، سواء ذكر في آخر الكتاب، أو أوله، أو لم يذكر البتة، ونفعل ذلك بدراسة الورق والمداد والخط ومضاهاتها بما نعرف من العصور المختلفة، فإذا وجدنا مخطوطة من القرن الأول أو الثاني للإسلام مكتوبة بخط فارسي، أو نسخي عادي، فيجب الحذر من صحة نسبتها. وإذا وجدنا مخطوطة في القرن الرابع أو الخامس مكتوبة بخط كوفي قديم قد خلا من النقط والإعجام، فمن المرجح أن تكون منحولة، وعلينا أن ننظر في اللغة التي كتبت بها، فهناك ألوان من الخصائص اللغوية، وأنواع من العبارات والمجازات لا توجد إلا في عصر دون عصر آخر.

ويمثل ذلك نستطيع أن نحدد عصر المخطوطة، فهناك الكثير من التعبيرات حدث في الإسلام لم يكن لها وجود في العصر الجاهلي، ويمكن أن نستخدم هذا المنهج في تحديد أدب العصر الجاهلي لكن بحذر ودقة متناهية وعين فاحصة وقراءة واسعة ومعايشة للنصوص المختلفة في هذا العصر، ذلك لأن المقياس الذي يتخذ في هذه الحالة غالباً هو: الجزالة

وحوشية اللفظ باعتبار أن هذا هو الذى يتناسب مع الأدب الجاهلى، فيظن أن كل أثر شعري يتسم بالرقّة وسهولة التعبير، لا بد أن يكون منتحلاً، ولكن هذا المنهج خطر كل الخطورة.

فليس بصحيح مطلقاً أن الشعر الجاهلى كان كله جزلاً، وإنما اختلفت طبيعة الشعر في الجزالة والرقّة باختلاف بينات الشعراء، فـشعر عديّ بن زيد، وشعر عبيد بن الأبرص، يتسم برقة لا تكاد تظفر بها حتى في العصر العباسى في بعض الأحيان، فلا يدل هذا مطلقاً على أنها منحولة، وعلى العكس من ذلك نجد في عصرنا الحديث شعراً يمتاز بالجزالة التامة مثل شعر الشيخ عبدالمطلب، فهذه الجزالة لا تعد مطلقاً على أنها من العصر الجاهلى، إنها تمتاز بالجزالة التامة ولكنها لا تنسب - كما هو واضح - إلى العصر الجاهلى.

والذى يجب أن نعتبره مقياساً دقيقاً هو طبيعة التراكيب الخاصة بالشاعر ومعجمه اللغوى، وبعض الخصائص المتعلقة بحروف الجر واستعمال المجاز والأفعال، فهذه الخصائص الدقيقة الجزئية، هى التى تضع أيدينا على حقيقة العصر التى كتبت فيه، خصوصاً إذا لاحظنا من ناحية أخرى أن المنتحلين قد تنبهوا إلى هذه المسألة، فكانوا أمكروا من أن يكتشف انتحالهم بسهولة، فاضطروا إلى تزييف لغة الأصل، كما نجد مثلاً في الأشعار المنتحلة التى اختلقها خلف الأحمر وحماد وغيرهما، فلقد افتن هؤلاء الرواة الذين رروا هذه الأشعار فى استعارة لغة الأصل، فأغربوا ما شاءوا الإغراب كى يعفوا على كل أثر لاتهامهم بالانتحال! فعلىنا إذن أن نكون دقيقين كل الدقة حذرين كل الحذر فى استخدام هذا المنهج، فقد سبقنا إليه علماء العربية الأقدمون، ففطنوا إلى ضرورة الدربة والممارسة عند الناقد، وفطنوا أيضاً إلى أهمية تحقيق صحة النصوص وصحة نسبتها «وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم.. وليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما وضعوا ولا ما وضع المولدون»<sup>(١)</sup>.

يقول ابن سلام وهو يرد الكوفيين إلى التساهل فى الرواية والتجوز فى القول: «وأسمعى بعض أهل الكوفة شعراً زعم أنه أخذه عن خالد بن كلثوم، يرثى به حاجب بن زرارة. فقلت له: كيف يروى خالد مثل هذا! وهو من أهل العلم، وهذا شعر متداع خبيث؟! فقال: أخذناه من الثقات»<sup>(٢)</sup>.

يقول ابن سلام تعقيبا على الخبر: «ونحن لا نعرف هذا ولا نقبله» وفى موضع آخر يقول عن حسان بن ثابت: «وقد حمل عليه ما لا يحمل على أحد، لما تعاضت قريش

(١) ابن سلام الجمحى: طبقات فحول الشعراء ٤٠.

(٢) ابن سلام الجمحى: طبقات فحول الشعراء ١٢٢.

واستتبت، ووضعوا عليه أشعاراً كثيرة لا تليق به»<sup>(١)</sup>.

و يمثل هذا المقياس شك الدكتور محمود قاسم في نسبة كتاب «مشكاة الأنوار» للإمام الغزالي قائلاً: «مثال ذلك ما يجده المختص عند قراءة كتاب (مشكاة الأنوار) للإمام الغزالي إذ سوف يجد أسلوباً متفاوتاً! مخالفاً لأسلوب الغزالي وآراء تتعارض مع نظرياته! مما دعى إلى الشك في أن يكون الفصل الثالث من هذا الكتاب من تأليفه. ونميل نحن شخصياً إلى الشك في نسبة الكتاب كله إليه وبخاصة أنه نسب إلى ابن المصفر السبتي أستاذ ابن عربي، في أواخر القرن السادس الهجري»<sup>(٢)</sup>.

وعندما يتعرض الباحث للتحقيق عامة، يجد من الواجب عليه أن يتذكر دوماً عدداً من الكتب، تهديه إلى ما يطلبه من المعرفة ومراجعتها، وأهم هذه الكتب:

- ١ - الأعلام. للزركلي. ففيه لكل عَلمٍ يذكره الكثير من مصادر ترجمته.
- ٢ - معجم المؤلفين. لعمر رضا كحالة.
- ٣ - مراجع تراجم شعراء العرب. لخدون الوهابي.
- ٤ - مصادر الدراسات الأدبية. لأسعد داغر.
- ٥ - الأدب العربي في آثار الدارسين. أشرفت عليه الجامعة الأمريكية في بيروت.
- ٦ - تاريخ آداب اللغة العربية. لجورجي زيدان.

ثم أهم كتابين يكتبان عن التراث العربي كله، وهما:

- ٧ - تاريخ الأدب العربي. لكارل بروكلمان
  - ٨ - تاريخ التراث العربي. لفؤاد سزجين.
- وقد ترجم إلى العربية بعضاً منها وجارى اليوم استكمال ترجمتها.
- وبلى هذه الكتب في الأهمية كتب الرجال، أعنى الكتب التي تترجم للأعلام من العرب، ونستطيع أن نصنفها إلى:

( أ ) الكتب العامة التي لا تقتصر على رجال عِلمٍ معينٍ أو فنٍ واحد. وترتب من ترجمت لهم على الألف باء، مثل:

- ١ - وفيات الأعيان. لابن خلكان.
- ٢ - فوات الوفيات. لابن شاكر.
- ٣ - الوافي بالوفيات. للصفدي.

(١) ابن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء .

(٢) الدكتور محمد قاسم : النطق الحديث ومناهج البحث ٤٤١ .

٤ - معجم الأدباء. لياقوت.

٥ - المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي. لابن تغرى بردى.

(ب) كتب الحوليات، أى التى تترجم للرجال، تبعا لسنوات وفاتهم، مثل:

١ - شذرات الذهب. لابن العماد.

٢ - مرآة الجنان. لليافعى.

(ج) كتب القرون، مثل:

١ - الدور الكامنة، فى أعيان المائة الثامنة. لابن حجر، وذيله (قرن ٨)

٢ - الضوء اللامع، للسخاوى. (قرن ٩)

٣ - الكواكب السائرة، للغوى (قرن ١٠)

٤ - خلاصة الأثر. للمحبى. (قرن ١١)

٥ - سلك الدرر. للمرادى. (قرن ١٢)

٦ - حلية البشر. لعبد الرزاق البيطار. (قرن ١٣)

(د) كتب البلدان، مثل:

١ - تاريخ دمشق. لابن عساكر.

٢ - تاريخ بغداد. للخطيب.

٣ - نفع الطيب. للمقرى.

٤ - زبدة الحلب فى تاريخ حلب. لابن العديم.

٥ - المقفى. للمقرى.

وحتى نسهل على الباحث المحقق سبل تحقيق الكتاب أسجل له أهم مراجعه مرتبة وفق السنوات الهجرية (وفيات أصحابها) مع العلم أن لكل فن من فنون المعرفة مراجعه، الخاصة.

وإنما سجلت المراجع المذكورة كنماذج للمراجع العامة ليهتدى بها الشادون فى فن

التحقيق والله الموفق.

\* \* \*

أهم المراجع العامة للتاريخ، والأدب، والنحو، والتصوف،  
وغير ذلك، مرتبة وفق السنوات الهجرية

رقم	اسم الكتاب	المؤلف	سنة وفاته
١	طبقات فحول الشعراء	ابن سلام	٢٢٤ هـ
٢	الطبقات الكبرى	ابن سعد	٢٣٠ هـ
٣	البيان والتبيين	المجاhez	٢٥٦ هـ
٤	الحيوان	المجاhez	٢٥٦ هـ
٥	عيون الأخبار	ابن قتيبة	٢٧٦ هـ
٦	الشعر والشعراء	ابن قتيبة	٢٧٦ هـ
٧	تاريخ اليعقوبي	اليعقوبي	٢٧٨ هـ
٨	فتوح البلدان	البلاذري	٢٧٩ هـ
٩	أنساب الأشراف	البلاذري	٢٧٩ هـ
١٠	الأخبار الطوال	أبو حنيفة الدينوري	٢٨٢ هـ
١١	النبات	أبو حنيفة الدينوري	٢٨٢ هـ
١٢	طبقات الشعراء	ابن المعتز	٢٩٦ هـ
١٣	تاريخ الطبري	الطبري	٣١٠ هـ
١٤	جمهرة اللغة (معجم لغوي)	ابن دريد	٣٢١ هـ
١٥	العقد الفريد	ابن عبد ربّه	٣٢٨ هـ
١٦	الوزراء والكتاب	الجهشياري	٣٣١ هـ
١٧	كتاب الأوراق	الصولي	٣٣٥ هـ
١٨	مروج الذهب	المسعودي	٣٤٦ هـ
١٩	القضاة والولاة	الكندي	٣٥٠ هـ
٢٠	مراتب النحوين	أبو الطيب اللغوي	٣٥١ هـ

رقم	اسم الكتاب	المؤلف	سنة وفاته
٢١	مشاهير علماء الأمصار	ابن حيان البستي	٣٥٤ هـ
٢٢	الأغاني	أبو الفرج الأصفهاني	٣٥٦ هـ
٢٣	أخبار النحويين البصريين	السيرافي	٣٥٨ هـ
٢٤	المسالك والممالك	ابن حوقل	٣٦٧ هـ
٢٥	مقدمة تهذيب اللغة	الأزهري	٣٧٠ هـ
٢٦	المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء	الآمدي	٣٧٠ هـ
٢٧	أحسن التقاسيم	المقدسي	٣٧٥ هـ
٢٨	طبقات النحويين واللغويين	الزبيدي	٣٧٩ هـ
٢٩	نشوار المحاضرة	التنوخى	٣٨٤ هـ
٣٠	نور القبس	المرزباني	٣٨٤ هـ
٣١	معجم الشعراء	المرزباني	٣٨٤ هـ
٣٢	الموشح	المرزباني	٣٨٤ هـ
٣٣	أشعار النساء	المرزباني	٣٨٤ هـ
٣٤	الفهرست	ابن النديم	٣٨٥ هـ
٣٥	تاريخ علماء الأندلس	ابن الفرضى	٤٠٣ هـ
٣٦	طبقات الصوفية	أبو عبد الرحمن السلمي	٤١٢ هـ
٣٧	تجارب الأمم	ابن مسكويه	٤٢١ هـ
٣٨	يتيمة الدهر	الثعالبي	٤٢٩ هـ
٣٩	المضاف والمنسوب	الثعالبي	٤٢٩ هـ
٤٠	حلية الأولياء	أبو نعيم	٤٣٠ هـ
٤١	تاريخ العلماء النحويين	القاضى التنوخى	٤٤٢ هـ
٤٢	كتاب الوزراء	هلال الصابي	٤٤٨ هـ
٤٣	طبقات الأمم	صاعد الأندلسى	٤٦٢ هـ
٤٤	الاستيعاب في معرفة الأصحاب	ابن عبد البر	٤٦٣ هـ
٤٥	تاريخ بغداد	الخطيب البغدادي	٤٦٣ هـ
٤٦	الرسالة	القشيري	٤٦٥ هـ
٤٧	طبقات الفقهاء	الشيرازي	٤٧٦ هـ

سنة وفاته	المؤلف	اسم الكتاب	رقم
٤٨١ هـ	الهروى	طبقات الصوفية	٤٨
٤٨٨ هـ	الحميدى	جذوة المقتبس	٤٩
٥٢٧ هـ	ابن أبى يعلى الفراء	طبقات الحنابلة	٥٠
٥٤٢ هـ	ابن بسام الأندلسى	الذخيرة	٥١
٥٥٥ هـ	ابن القلانصى	ذيل تاريخ دمشق	٥٢
٥٦٢ هـ	السمعانى	كتاب الأنساب	٥٣
٥٧٠ هـ	البيهقى	تاريخ الحكماء	٥٤
٥٧١ هـ	ابن عساكر	تاريخ دمشق (مخطوط)	٥٥
٥٧٧ هـ	ابن الأنبارى	نزهة الألباء فى طبقات الأدباء	٥٦
٥٧٨ هـ	ابن بشكوال	كتاب الصلة	٥٧
٥٨٦ هـ	ابن سمرة الجعدى	طبقات فقهاء اليمن	٥٨
٥٩٧ هـ	ابن العماد الأصفهانى	خريدة القصر	٥٩
٥٩٧ هـ	ابن الجوزى	المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم	٦٠
٦١٤ هـ	ابن جبير	رحلة ابن جبير	٦١
٦٢٦ هـ	ياقوت	معجم الأدباء	٦٢
٦٢٦ هـ	ياقوت	معجم البلدان	٦٣
٦٢٧ هـ	المطار	تذكرة الأولياء	٦٤
٦٣٠ هـ	ابن الأثير	اللباب فى تهذيب الأنساب	٦٥
٦٣٠ هـ	ابن الأثير	أسد الغابة فى معرفة الصحابة	٦٦
٦٣٠ هـ	ابن الأثير	الكامل (فى التاريخ)	٦٧
٦٤٦ هـ	القفطى	إنباه الرواة على أنباه النحاة	٦٨
٦٤٦ هـ	القفطى	تاريخ الحكماء	٦٩
٦٤٦ هـ	القفطى	المحمدون من الشعراء وأشعارهم	٧٠
٦٥٥ هـ	ابن أبى الحديد	شرح نهج البلاغة	٧١
٦٥٨ هـ	ابن الأبار	تكملة الصلة	٧٢
٦٥٨ هـ	ابن الأبار	إعتاب الكتاب	٧٣
٦٦٥ هـ	أبو شامة المقدسى	تراجم رجال القرنين: السادس، والسابع	٧٤

سنة وفاته	المؤلف	اسم الكتاب	رقم
٦٦٨ هـ	ابن أبي أصيبعة	طبقات الأطباء	٧٥
		وانظر «معجم الأطباء» ذيل الكتاب السابق	
٦٧٢ هـ	ابن العميد	تاريخ المسلمين	٧٦
٦٧٤ هـ	ابن الساعي الخازن البغدادي	نساء الخلفاء	٧٧
٦٧٧ هـ	النواوي	تهذيب الأسماء	٧٨
٦٨١ هـ	ابن خلكان	وفيات الأعيان	٧٩
٧٠٩ هـ	ابن طباطبا	الفخرى	٨٠
٧١٩ هـ	ابن منظور	لسان العرب	٨١
٧١٩ هـ	ابن منظور	مختار الأغاني	٨٢
٧٢٣ هـ	ابن القوطي	الحوادث الجامعة	٨٣
٧٣٢ هـ	أبو الفداء	تاريخ أبي الفداء	٨٤
٧٣٣ هـ	الثوري	نهاية الأرب	٨٥
٧٤٢ هـ	المزى	تهذيب الكمال في أسماء الرجال	٨٦
٧٤٣ هـ	عبد الباقي اليماني	إشارة التعمين في تراجم النحاة واللغويين	٨٧
٧٤٨ هـ	الأدقوي	الطالع السعيد في أسماء نجباء الصعيد	٨٨
٧٤٨ هـ	الذهبي	تذكرة الحفاظ	٨٩
٧٤٨ هـ	الذهبي	معرفة القراء الكبار	٩٠
٧٤٨ هـ	الذهبي	المشتبه في أسماء الرجال	٩١
٧٤٨ هـ	الذهبي	العبر في خبر من عبر	٩٢
٧٤٨ هـ	الذهبي	سير أعلام النبلاء	٩٣
٧٤٨ هـ	الذهبي	تاريخ الإسلام	٩٤
٧٦٤ هـ	ابن شاکر	وفاة الوفيات	٩٥
٧٦٤ هـ	الصفدي	الوافي بالوفيات	٩٦
٧٦٤ هـ	ابن شاکر الکتبی	فوات الوفيات	٩٧
٧٦٤ هـ	ابن شاکر الکتبی	عيون التواريخ (مخطوط)	٩٨
٧٦٥ هـ	الحسيني	ذيل تذكرة الحفاظ	٩٩
٧٦٨ هـ	اليافعي	مرآة الجنان وعبرة اليقظان	١٠٠

سنة وفاته	المؤلف	اسم الكتاب	رقم
٧٧١ هـ	السبكي	طبقات الشافعية	١٠١
٧٧٢ هـ	الأسنوى	طبقات الشافعية	١٠٢
٧٧٤ هـ	ابن كثير	البداية والنهاية	١٠٣
٧٧٧ هـ	ابن بطوطة	رحلة ابن بطوطة	١٠٤
٧٩٥ هـ	ابن رجب	الذيل على طبقات الحنابلة	١٠٥
٧٩٩ هـ	ابن فرحون	الديباج المذهب في أعيان المذهب	١٠٦
٨٠٨ هـ	ابن خلدون	مقدمة ابن خلدون	١٠٧
٨٠٩ هـ	ابن دقماق	الجواهر الثمين في تاريخ الخلفاء والملوك والسلاطين	١٠٨
٨٠٩ هـ	ابن دقماق	الانتصار	١٠٩
٨١٧ هـ	ابن الجزرى	غاية النهاية في طبقات القراء	١١٠
٨١٧ هـ	الفيروز بادی	القاموس المحيط	١١١
٨١٧ هـ	الفيروز بادی	البلغة في تاريخ أئمة اللغة	١١٢
٨٢١ هـ	القلقشندي	صبح الأعشى في صناعة الإنشا	١١٣
٨٤٠ هـ	أحمد بن يحيى المرتضى	طبقات المعتزلة	١١٤
٨٤٥ هـ	المقريزى	كتاب السلوك في معرفة دول الملوك	١١٥
٨٤٥ هـ	المقريزى	كتاب الاعتبار بذكر الخطط والآثار	١١٦
٨٥١ هـ	ابن قاضى شهبة الأسدی	طبقات النحويين واللغويين	١١٧
٨٥٢ هـ	ابن حجر	الإصابة في معرفة الصحابة	١١٨
٨٥٢ هـ	ابن حجر	تهذيب التهذيب	١١٩
٨٥٢ هـ	ابن حجر	تقريب التهذيب	١٢٠
٨٥٢ هـ	ابن حجر	تبصير المنتبه بتحرير المشتبه	١٢١
٨٥٢ هـ	ابن حجر	لسان الميزان	١٢٢
٨٧١ هـ	ابن فهد القرشى	الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة	١٢٣
٨٧٤ هـ	ابن تغرى بردى	ذيل تاريخ الإسلام للذهبي	١٢٤
٨٧٤ هـ	ابن تغرى بردى	النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة	١٢٥
٨٧٤ هـ	ابن تغرى بردى	المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافى	
٨٧٤ هـ	ابن تغرى بردى	الدليل الشافى على المنهل الصافى	١٢٦

رقم	اسم الكتاب	المؤلف	سنة وفاته
١٢٧	تاج التراجم في طبقات الحنفية	ابن قطلوبجيا	٨٧٩ هـ
١٢٨	التحفة السنية في تراجم الحنفية	ابن الجيعان	٨٨٥ هـ
١٢٩	نفحات الأنس	الجامي	٨٩٨ هـ
١٣٠	الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع	السخاوي	٩٠٢ هـ
١٣١	بغية الوعاة في طبقا اللغويين والنحاة	السيوطي	٩١١ هـ
١٣٢	تاريخ الخلفاء	السيوطي	٩١١ هـ
١٣٣	طبقات المفسرين	السيوطي	٩١١ هـ
١٣٤	خلاصة تذهيب الكمال	الخنزرجي	٩٢٣ هـ
١٣٥	طبقات المفسرين	الداودي	٩٤٥ هـ
١٣٦	مفتاح السعادة	طاش كبرى زادة	٩٦٨ هـ
١٣٧	لواقح الأنوار	الشعراي	٩٧٣ هـ
١٣٨	طبقات الحنابلة	ابن عبد القادر	١٠٠٥ هـ
١٣٩	الطبقات الكبرى	المنائوي	١٠٣١ هـ
١٤٠	نيل الابتهاج	التمبكتي	١٠٣٦ هـ
١٤١	النور السافر في أخبار القرن العاشر	العيدروسي	١٠٣٨ هـ
١٤٢	نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب	المقرئ	١٠٤١ هـ
١٤٣	الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة	الغزوي	١٠٦١ هـ
١٤٤	كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون	حاجي خليفة	١٠٦٧ هـ
١٤٥	شذرات الذهب في أخبار من ذهب	ابن العماد الحنبلي	١٠٨٩ هـ
١٤٦	خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر	المحبي	١١١٠ هـ
١٤٧	تاج العروس	الزبيدي	١٢٠٥ هـ
١٤٨	روضات الجنات	الخوانساري	١٣١٣ هـ
١٤٩	ذيل كشف الظنون	إسماعيل باشا البغدادي	١٣٣٩ هـ
١٥٠	هدية العارفين في أسماء المؤلفين	اسماعيل باشا البغدادي	١٣٣٩ هـ
١٥١	معجم الأطباء (ذيل على طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة)	أحمد عيسى	١٣٦٥ هـ
١٥٢	أعيان الشيعة	محسن بن عبد الكريم الدمشقي	١٣٧١ هـ
١٥٣	المعجم الوسيط	مجمع اللغة العربية بالقاهرة	١٣٨٠ هـ

سنة وفاته	المؤلف	اسم الكتاب	رقم
١٣٩٠هـ	خير الدين الزركلي	الأعلام	١٥٤
—	عمر رضا كحالة	معجم المؤلفين (تراجم مؤلفي الكتب العربية)	١٥٥
—	عمر رضا كحالة	معجم قبائل العرب	١٥٦
—	عمر رضا كحالة	أعلام النساء	١٥٧
—	كوركييس عواد	معجم المؤلفين العراقيين من سنة ١٨٠٠-١٩٦٩م	١٥٨
—	محمد عبدالله مصطفى المراغى	الفتح المبين في طبقات الأصوليين	١٥٩

\* \* \*

## التصحيح والتحريف

يتحتم على من ينصب نفسه لمهمة التحقيق أن يكون ذا دراية كاملة بالتصحيح والتحريف، وأن يكون فطنا لمواقع التصحيح، يستطيع أن يرد الأمور إلى نصابها، وأن يصيب قول المؤلف، ففَنَ التصحيح والتحريف فن عظيم، لا يتقنه إلا الحفاظ الحاذقون، وفيه حكْمٌ على كثير من العلماء بالخطأ، ولذلك كان من الخطر أن يقدم عليه من ليس له بأهل. يقول النووي عنه: «هو فن جميل، وإنما يحققه الحدائق، والدارقطنى منهم، وله فيه تصنيف مفيد».

والتصحيح يكون تصحيح لفظ وتصحيح بصر، في الإسناد والمتن، فمن الإسناد: (العوام بن مَرَجَم) بالراء والجيم، صحفه ابن معين فقال بالزاي والحاء. ومن الثاني: حديث زيد بن ثابت؛ «إن النبي ﷺ احتجر في المسجد»، أى اتخذ حجرة من حصير ونحوه يصلى فيها، صحفه ابن لهيعة فقال: «احتجم» وحديث: «من صام رمضان وأتبعه ستاً». صحفه الصولى فقال: «شيئا بالمعجمة»<sup>(١)</sup>.

### والتصحيح والتحريف:

لفظتان بينهما رباط قوى، فقد جمعها العلماء كثيراً، عنوانا لمؤلف واحد، كما فعل أبو أحمد العسكري في كتابه (شرح ما يقع فيه التصحيح والتحريف) وكما فعل الصفدى بعده في كتابه (تصحيح التصحيح وتحريف التحريف).

وقد عني بمعرفة التصحيح والتحريف جهابذة العلماء، وخاصة حفاظ الحديث، وجامعو اللغة والدواوين، وأكبر القوم من يحدقه واعتبروه حكماً على غيره، وعدّوه من جملة نقاد عصره.

وكان المتقدمون من رجال الحديث لا يفرقون بين المصحف والمحرّف، فكلاهما يقع فيه الخطأ، لأنه مأخوذ عن الصحف. وقد شرح التهانوى في كتابه (كشاف اصطلاحات الفنون) المراد بهما في مكان واحد.

والصلة التي بين اللفظتين - مع التجاوز عما فيهما من جناس لفظي - أن مجال البحث فيهما - كما فهمه المتقدمون من العلماء - واحد، وهو يدور في البحث عن الخطأ، ومصدر هذا الخطأ الذي يحدث في نطق أو كتابة الكلمة العربية، نتيجة الخطأ الإملائي في قراءة الحروف

(١) التقریب والتيسير: ٣٨٤ - ٣٨٥.

المكتوبة، سواء كان هذا الخطأ في نقط الحروف أو شكلها، أو تبادلها الأمكنة. فالتصحيف والتحريف مظهران للخطأ في قراءة الخط المكتوب، أو اللفظ المسموع.

فهناك تحريف قراءة، وتحريف سماع، أو تحريف بصر وتحريف سماع، ويترتب على تحريف البصر قراءة كلمة جديدة قد تكون صحيحة لغة ومعنى، ولكنها غير الكلمة التي قصدها المؤلف حين كتب مؤلفه أو أملاه.

قال حمزة الأصفهاني: «أجاب أهل المعاني في معنى التصحيف فقالوا: أن يقرأ الشيء بخلاف ما أراد كاتبه، وعلى غير ما اصطلح عليه في تسميته»<sup>(١)</sup>.

وأما لفظ (التصحيف) فإن أصله - فيما زعموا - أن قوما كانوا أخذوا العلم عن الصحف، من غير أن يلقوا فيه العلماء، فكان يقع فيما يروونه التغيير، فيقال عندها: «قد صحفوا فيه»، أي رووه عن الصحف، ومصدره (التصحيف) ومفعوله (مُصحَّف) وأما (المُصحَّف) فمأخوذ من (أصحف إصحافاً) وأصله، أن الصحف جمعت فيه، فقيل: قد أصحف، ولو سمي التصحيف تغييراً أو تبديلاً جاز<sup>(٢)</sup>.

وقال أبو أحمد العسكري: «فأما معنى قولهم (الصحف والتصحيف) فقد قال الخليل: إن الصحف الذي يروى الخطأ عن قراءة الصحف بأشبه الحروف»<sup>(٣)</sup>.

وتبعاً لهذا الترادف الموجود بين اللفظين (التصحيف والتحريف) سمي العسكري كتابه في هذه المباحث (شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف) وهذا الكتاب من أجل المؤلفات في بيان ما وقع فيه العلماء من تصحيف القرآن، والسنة، ولقد أراد العسكري أن يجربنا بتساوي التصحيف والتحريف في نظره فقال: «شرحت في كتابي هذه الألفاظ والأسماء المشكّلة التي تتشابه في صورة الخط، فيقع فيها التصحيف ويدخلها التحريف»<sup>(٤)</sup>. وقال في موضع آخر: «أصل هذا أن قوماً كانوا أخذوا العلم عن الصحف، من غير أن يلقوا العلماء فكان يقع فيما يروونه التغيير»<sup>(٥)</sup>.

ولهم في الضبط طريقتان:

الأولى: ضبط القلم كأن يكتب على المفتوح فتحة، وعلى المرفوع ضمة؛ وتحت المجرور كسرة، فإذا كان في الحرف ضبطان رسموها، وكتبوا بحرف صغير كلمة «معا» وأمعن بعضهم في الدقة فرسموا تحت الحاء المهملة حاء صغيرة، وتحت الدال المهملة نقطة، وتحت

(٤) شرح ما يقع فيه التصحيف: ٣

(٥) شرح ما يقع فيه التصحيف: ٩

(١) التنبيه على حدوث التصحيف: ٣٦

(٢) التنبيه على حدوث التصحيف: ٣٦

(٣) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف: ١٣

السين المهملة ثلاث نقط إلى آخر هذه المصطلحات التي يعرفها من تمرس بقراءة المخطوطات وتحدثنا عنها قبل ذلك.

والثانية: ضبط العبارة، وهو أن يصف الكاتب حروف الكلمة التي هي مظنة التصحيف، بما ينفي عنها الاشتباه بأخواتها التي تتفق معها في الرسم فيقول مثلاً، في «العَثَّ» بالعين المهملة والثاء المثلثة المفتوحة الخ، وبذلك لا تتصحف بكلمة «القيث». وهذه الطريقة أدق ضبطاً، إذ كان الضبط بالقلم عرضه للمحو أو التغيير.

ولكن المتأخرين من العلماء مالوا إلى التفرقة بين المصحف والمحرّف وإن جاءت تفرقتهم لفظية شكلية.

فما كان فيه تغيير حرف أو حروف بتغيير النقط، مع بقاء صورة الخط، سمي (مصحفاً) مثل: الموشح والموسّخ، وعباس وعياش، وحمة وجمرة، والثوري والتوزي. فحديث: «من صام رمضان وأتبعه ستا من شوال» صحفه أبو بكر الصولي فقال: «شيئاً» بالشين والمعجمة والياء.

والتحريف: هو العدول بالشئ عن جهته. والتحريف قد يكون بالزيادة في الكلام أو النقص منه، وقد يكون بتبديل بعض كلماته، وقد يكون بحمله على غير المراد منه. فهو بكل هذه التعريفات أعم من التصحيف، ومثال المحرف كحديث جابر: «رمى (أبي) يوم الأحزاب على أكتفِهِ فكواه رسول الله ﷺ» صحفة غندر وقال فيه (أبي) بالإضافة وإنما هو (أبي بن كعب) وأبو جابر كان قد استشهد قبل ذلك بأحد<sup>(١)</sup>.

وتخبرنا التهانوي أنهم قالوا: مخالفة الراوي للثقات، إن كانت بتغيير الحرف أو الحروف، مع بقاء صورة الخط في السياق، فإن كان ذلك بالنسبة إلى النقط يسمى ذلك الحديث (مصحفاً) وإن كان بالنسبة إلى الشكل والإعراب يسمى (محرفاً) وابن الصلاح وغيره سمي القسمين محرفاً.

وقال أبو البقاء في كليته<sup>(٢)</sup>: التصحيف: تغيير اللفظ والمعنى. والتحريف: تغيير اللفظ دون المعنى.

وعلى أي فالتصحيف والتحريف كلاهما وضع حرف مكان آخر. غير أن التصحيف لا يقع إلا بين الحروف المتشابهة في الرسم الإملائي كالباء والثاء والنون والياء - أو الجيم والحاء والخاء - أو الدال والذال.. كما يقول في (مضر): (مضر) فهو إذاً تغيير في النقط فقط.

أما التحريف: فهو استبدال حرف بحرف آخر لا يشبهه في رسمه مقارب له كما تقول في

(١) علوم الحديث ومصطلحة: ٢٥٥ والباعث الحديث: ١٧٢

(٢) كليات أبي البقاء ص ١٢١

(الرجل) : (الدجل) أو بعيداً عنه كما تقول في (الرجل) : (الأجل) . وبعض من النساخين ينقلون الفين فاء والفاء غينا، والبدال لاما، واللام دالا، وهكذا، ومثل هذه الأمور، لا تخفى على المحقق المتمرس بالخطوط القديمة.

ولكننا نلاحظ أن كلمة تصحيف لها شهرة تفوق كلمة تحريف، وربما كان ذلك لقرب دلالتها على النوع، وارتباطها بسببه الذي هو القراءة من الصحف، ولكن ما هو السبب أو الأسباب التي جعلت هذه الظاهرة تحدث في الكتابة العربية؟

والإجابة عن ذلك في عبارة مختصرة هي: الخط العربي وقابليته للتصحيف والتحريف، ذلك أن حروفه متشابهة، يميز بينها النقط الإعجامي، ورسم الحروف نفسها يقرب بعضه من بعض، فمثلا تجد محقق كتاب الأغاني يثبت قول أبي الفرج الأصفهاني: «حدثني حمزة بن ربيعة»<sup>(١)</sup> ومحقق ثان لنفس الكتاب يقول إنما هي «حدثني ضمرة بن ربيعة»<sup>(٢)</sup> ولكل وجهة نظره وبرهانه ومراجعته.

ولنضرب مثلا ثانياً من نفس المرجع، يقول: محقق الجزء السابع عشر ص ٢١٢: «رحم الله معاوية إن كنا لنخدعه فيتخادع لنا! وما ابن أنثى (بأكرم) منه، وإن كنا لتعرفه يتفارق لنا، وما الليث (المحرّب) بأجرأ منه».

ثم يأتي محقق ثان فيثبتها «... وما ابن أنثى (بأمكر) منه... وما الليث (المجرّب) بأجرأ منه» ولكل من المحققين وجهة نظره وحده وثقافته التي يبرهن بها على صدق نظره.

والمهم عندي أن أثبت أن الخط العربي في أصل وضعه كان أهم أسباب التصحيف والتحريف، والأمثلة كثيرة جداً يمكن للمتأمل أدنى تأمل أن يلحظها، فمثلا: جابر، حائر، جاء برّ.. ذؤابة.. حبّذا، جيداً.. ونمير، نمير.. وقَلْب، قَلْب، قَلْب.. ونجيب، نُجيب، نَجيب، بحيث، بجيب، نحيب، تحنّ، يحث<sup>(٣)</sup> وكل ذلك سببه قرب رسم الحروف بعضها من بعض. عند المقارنة بين الجزء السابع عشر، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، وما يقابله في نشر دار الشعب، هذا فضلا عما ملئت به بطون الكتب من الأمثلة التي لا تحتاج إلى مقارنة ولا إلى تأمل<sup>(٤)</sup>.

(١) الأغاني: ج ١٧: ٣٦٠ ط الهيئة العامة للتأليف والنشر سنة ١٩٧١

(٢) الأغاني: ج ١٧: ٦٦٠ ط الشعب سنة ١٩٧١

(٣) انظر تصحيح التصحيف وتحرير التحريف ٢٧ وما بعدها للصفدي بتحقيق الدكتور سيد الشراوى

(٤) تناول هذه الظاهرة من المعاصرين الأستاذ الدكتور محمد نبيه حجاب في مجلة كلية دار العلوم العدد الثالث سنة ١٩٧١.

لمراجع إليها من أراد الاستزادة

والذى يترتب على تبادل الحروف المتميزة بالنقط في التصحيف، حدوث كلمات جديدة ذات معنى يخالف معنى النص أصلاً وقد تكون الكلمات المحدثه من التصحيف لا معنى لها إطلاقاً، وإنما هى هراء لغوي لا يفيد شيئاً. قال الجاحظ: «مررت بمعلم وهو يلقن صبياً:

يَا أَبَا الْفَيْشِ جَثِيَّ      أَخْرَجَ الْفُتْيَانَ غَثَا  
لَيْسَ فِي الْأَرْضِ أَيْسُ      شَرَبُوا أَيْلَحَ مَثَا

فقلت (أى الجاحظ): بالعبرانية هذا؟ قال: لا. هو بالعربية فلما تأملته إذا هو مكتوب:

يَا أَبَا الْعَبَّاسِ حُبِيَّ      أَخْرَجَ الْفُتْيَانَ عَثَا  
لَيْسَ فِي الْأَرْضِ أَنْسُ      شَرَبُوا أَمْلَحَ مِثَا

فقلت: أيها المعلم، إنك ضائع بهذا البلد! قال: نعم، قذور ومرزوق<sup>(١)</sup>.

فتغيير نقط حروف الكلمات أنتج كلمات لا معنى لها، حتى ظنها الجاحظ كلاماً بالعبرانية، وقدم للمعلم بسببها النصح الساخر قائلاً: أيها المعلم إنك ضائع بهذا البلد.

والأصل في التصحيف: أن يكون من أخطاء النظر في الصحف كما رأينا، ومنه كانت تسميته. ولكن منه نوعاً يسمى تصحيف سمع: وهو أن يكون الاسم واللقب، أو الاسم واسم الأب على وزن اسم آخر ولقب، أو اسم آخر واسم أبيه. والحروف مختلفة شكلاً ونقطاً، فيشتبه ذلك على السمع كحديث (عاصم الأحول) رواه بعضهم فقال: «عاصم الأحذب» قال ابن الصلاح: «فذكر الدارقطني أنه من تصحيف السمع لا من تصحيف البصر، كأنه ذهب - والله أعلم - إلى أن ذلك مملاً يشته به من حيث الكتابة، وإنما أخطأ فيه سمع من رواه»<sup>(٢)</sup>.

وكثرة وقوع التصحيف في أسماء الرواة ورجال السند، حملت النقاد على العناية بالمتشابه من هذه الأسماء، بل جاوزه إلى معرفة المتشابه في قبائل الرواة وبلدانهم وكنائهم وصنائعهم، وإلى معرفة من له أسماء متعددة، ومن اشتهر بالاسم دون الكنية، والمؤتلف والمختلف من الأسماء والألقاب والأنساب، وصنعوا في ذلك كتباً كثيرة طبع بعضها ولا يزال الكثير منها مخطوطاً، يقول ابن كثير عند حديثه عن ما يجب أن يعرف من أوطان الرواة وبلدانهم:

(١) محاضرات الأدباء: ٦٣/١

(٢) علوم الحديث لابن الصلاح: ٢٣٣ وانظر الباعث الحثيث: ١٧١

«وهو مما يعتنى به كثير من علماء الحديث، وربما ترتب عليه فوائد مهمة منها: معرفة شيخ الراوى، فربما اشتبه بغيره، فإذا عرفنا بلده تعين بلديه غالباً، وهذا مهم جليل، وقد كانت العرب إنما ينسبون إلى القبائل والعماثر والعشائر والبيوت، والعجم إلى شعبيها ورساتيقيها وبلداتها، وبنو إسرائيل إلى أسباطها، فلما جاء الإسلام وانتشر الناس في الأقاليم نسبوا إليها أو إلى مدنها أو قراها»<sup>(١)</sup>.

والتصحيح في جميع صوره غالباً ما يغير المعنى ويشوه الحقائق. صَوَّبَ محقق الأغاني طبعة الهيئة نص أبي الفرج على النحو التالي: «إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أخذ من رجل سوما على فرس، فحمل عليه رجلاً، فعطب الفرس فقال عمر: اجعل بينى وبينك رجلاً فقال الرجل..»<sup>(٢)</sup>. والنص في طبعة الشعب: «.. فحمل عليه رَجُلًا فعطب الفرس ..»

ومن القصص الطريفة في التصحيح ما حكاه ابن التديم رواية عن أبي الحسن الراوندى قال ابن الراوندى: «مررت بشيخ جالس ويده مصحف وهو يقرأ (ولله ميزاب السموات والأرض) فقلت: وما معنى ميزاب السموات والأرض؟ قال: هذا المطر الذى ترى. فقلت: ما يكون التصحيح إلا إذا كان مثلك يقرأ. ما هكذا إنما هو ﴿مِيزَاتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فقال: اللهم غفرا أنا منذ أربعين سنة أقرؤها وهى في مصحفى هكذا»<sup>(٣)</sup>.

وقال الأخفش أنشدت أبا عمرو بن العلاء:

قالت قُتَيْلَةُ مَا لَهُ قَدْ جَلَّتْ شَيْبًا شُؤَاتِهِ؟

فقال أبو عمرو: كبرت عليك رأس الراء فظننتها واوا. فقلت: وما سراته؟ قال سراة البيت ظهره، قال الأخفش: ما هو إلا (شواته) ولكنه لم يسمها<sup>(٤)</sup>.

وفى كتاب (الشعر والشعراء)، قصيدة لحميد بن ثور الهلالي فى وصف ذئب وامرأة:  
تَرَى رَبَّةَ الْبَهْمِ الْفِرَارَ عَشِيَّةً إِذَا مَا عَدَا فِي بَهْمِهَا وَهُوَ ضَائِعٌ  
رَأْتَهُ فَشَكَّتْ وَهُوَ أَكْحَلُ مَائِلٌ إِلَى الْأَرْضِ مَثْنِيٌّ إِلَيْهِ الْأَكَارِعُ  
هكذا جاء فى الطبعتين (دى غويه والشيخ شاكر) (أكحل مائل) وهو خطأ وصحة التحريف:

(١) اختصار علوم الحديث: ٢٤٨

(٢) ج ١٧: ٢١٧

(٣) ملحق الفهرست: ٥

(٤) المزهر: ٣٦٥/٢

رَأْتُهُ فَشَكَتَ وَهُوَ أَطْحَلُ مَائِلٌ إِلَى الْأَرْضِ مَثْنِيٌّ إِلَيْهِ الْأَكْبَارُ  
وكذلك جاء في ديوان الشاعر ص ٣٧ وأمالى المرتضى ٤/١٢١، وحاسة ابن الشجري  
ص ٢٥٧ وفي لسان العرب (١٣ : ٤٢٤) قال ابن سيدة : « الطحلة لون بين الغبرة  
والبياض بسواد قليل كلون الرماد. ذئب أطحل وشاة طحلاء »<sup>(١)</sup>.

ويحكى لنا شيخ العروبة طُرقاً مليحة من أنواع التصحيف منها: أن رجلا من المحدثين  
قال: «عن رسول الله ﷺ، عن جبريل، عن الله (عن رجل) فجعل الله شيخا ولو قال (عز  
وَجَل) لكان صادقا، ومن ذلك الذي قال؛ (مسح وجهه من القبح) ولم يعرف أن يقرأ (زمن  
الفتح)، ومنه أن تلميذا قرأ على معلم: ﴿إِنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ فقال المعلم:  
ويحك ! زيفا»<sup>(٢)</sup>.



وليس الأدباء أو المحدثون فقط هم الذين اهتموا وحدهم بالتصحيف، فناعبوا به، بل  
نرى رجالا عظاما في عصور الإسلام الزاهرة عالجوا مشكلته وحاولوا حلها، فهناك  
أبو الريحان البيروني يشكو في كتابه (الصيدنة) خطر التصحيف في أسماء النبات والعقاقير في  
العربية، وفي سائر اللغات المحررة بحروف عربية إذا يقول: «ولكن للكتابة العربية آفة  
عظيمة، هي تشابه صور الحروف المزدوجة واضطرابها في التمايز إلى نقط المعجم، وعلامات  
الإعراب التي إذا تركت استبهم المفهوم منها، فإذا انضاف إليه إغفال المعارضة وإهمال  
التصحیح بالمقابلة، وذلك بالفعل عامٌ عند قومنا، تساوى به وجود الكتاب وعدمه، بل علم  
ما فيه وجهه»

وكذلك يروى أن حنين بن إسحاق كان يخطأ فيها يبلغه من أسماء الأدوية، ففزع من  
الحرف ذى اللبس إلى آخر يضعه مكانه، فمن ذلك أنه كان يكتب (الصعتر) ويقول أخاف  
أن يقرأ (الشعير) فيصير به الدواء داه<sup>(٣)</sup>.

إذن فطريقة الرسم العربي في تشابه الحروف يعود إليها المسئولية الأولى عن ظاهرة  
التصحيف والتحريف، ومع ذلك فقد عاون على إشاعة هذه الظاهرة الوراقون الذين تنحصر  
جهودهم في احتراف الوراقة، لنسخ الكتب وبيعها للناس، ولم يكن للنساخ والوراقين غالبا  
علمٌ باللغة حتى يتمكنوا من التمييز بدقة بين كلمة وكلمة، يعتمد التمييز بينها على نقطة  
أو حركة أو تغيير أحد الحروف، وحينئذ يحدث الخلط بين ذلك في الكتابة، وهذا نفسه معنى

(١) انظر: مقدمة الشعر والشعراء ٥١٤

(٢) المحاضرة الإسلامية: ٧٢

(٣) انظر المنتقى: ١٨٠

(التصحيف والتحريف) ويشترك في ذلك علماء اللغة أنفسهم - على قلة - فإن أحدهم قد يفهم الكلمة فيها خاصا يسوغه السياق له أو يسوغه هو لنفسه، ثم يقرؤها ويروها كما فهم وإن لم يتفق ذلك الفهم مع أصلها وما قصده منها صاحبها.

فهذه الأمور الثلاثة السابقة:

١ - تشابه رسم الحروف العربية.

٢ - النَّسَاح.

٣ - وَهْمُ الْعُلَمَاءِ.

يعود إليها بمجموعة مسئولية التصحيف والتحريف، وإن كان الرسم الكتابي أعظمها مسئولية في ذلك.

قال الجاحظ عن تحريف النساخ: «لربما أراد مؤلف الكتاب أن يصلح تصحيفا أو كلمة ساقطة فيكون إنشاء عشر ورقات من حُرِّ اللفظ وشريف المعاني أيسر عليه من إتمام ذلك النقص، حتى يردّه إلى موضعه من اتصال الكلام... ثم يصير الكتاب بعد ذلك نسخة لإنسان آخر، فيسير فيه الوراق الثاني سيرة الوراق الأول، ولا يزال الكتاب تتناوله الأيدي الجانبية والأعراض المفسدة حتى يصير غلطا صرفا وكذبا مصمتا»<sup>(١)</sup>.

وقال أبو أحمد العسكري: «الاحتراس من التصحيف لا يدرك إلا بعلم غزير ورواية كثيرة، وبمعرفة مقدمات الكلام وما يصلح أن يأتي بعدها، مما يشاكلها وما يستحيل مضاهاته لها، ومقارنته بها، ويمتنع من وقوعه بعدها، وتمييز هذا مستصعب عسر»<sup>(٢)</sup>.

هذا وقد تحرّف النصوص عمدا مع سبق الإصرار، وهذا ما يسمى بالتزييف، ويكون ذلك نصرة لرأى مع معرفة وجه الحق فيه، وهذا من أخطر الأمور على المحقق الذي يتصدى لنشر كتاب، يجبرنا حمزة الأصفهاني أن سيبويه صَدَّرَ كتابه بباب ضمنه أشعارا على رواياتٍ توافق ما بنى عليه الباب، ويخالفه رواية الشعر في أكثرها، فمنه روايته لقول الشاعر:

أَلَمْ يَأْتِ بِكِ وَالْأَنْبَاءِ تَنْمِي      بِمَا لَاقَتْ لَبُونُ بَنِي زِيَادِ؟

ورواه غيره «ألم يبلغك» وإذا روى هكذا لم يكن لسيبويه فيه حجة<sup>(٣)</sup>.

وقال أبو أحمد العسكري: «مما غلط فيه النحويون من الشعر ورووه موافقا لما أرادوه ماروى عن سيبويه عندما احتج به في عطف الاسم المنصوب على المخفوض قول الشاعر:

(١) الحيوان: ٧٩/١.

(٢) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ٢.

(٣) التنبيه على حدوث التصحيف: ١٥٠.

مَعَاوِيَ إِنَّنَا بَشَرٌ فَنَسْجَعُ فَلَسْنَا بِالْجِبَالِ وَلَا الْحَدِيدِ

وغلط على الشاعر! لأن هذه القصيدة مشهورة، وهي مخفوضة كلها:

مَعَاوِيَ إِنَّنَا بَشَرٌ فَنَسْجَعُ فَلَسْنَا بِالْجِبَالِ وَلَا الْحَدِيدِ  
أَكَلْتُمْ أَرْضَنَا فَجَرَدْتُمُوهَا فَهَلْ مِنْ قَائِمٍ أَوْ مِنْ حَاصِدٍ  
فَهَبَّهَا أُمَّةٌ هَلَكَتْ ضِيَاعًا يَزِيدُ يَسُومُهَا وَأَبُو يَزِيدٍ<sup>(١)</sup>

فإرادة النحاة موافقة الباب هي السبب في تحريف الرواية على الشعراء، وكان لبعضهم دور في هذا التحريف، فإنهم كانوا يميلون إلى الرواية التي تتفق وغايتهم! راجحة كانت أم مرجوحة، ما دامت تخدم القضية التي تعرّضوا لها وتثبت القاعدة التي يرونها ويريدونها.

وليس تحريف النصوص خدمة للرأى مقصور على علماء اللغة فقط، بل وجدت بالصفة نفسها بين علماء الفقه، والفروع ورجال الحديث، وغيرهم.

يتلخص لنا مما سبق أن الدوافع وراء تحريف النصوص تتلخص في الآتي:

١ - غلط الدارس في سماع الرواية، فأنحرفت لديه عن حسن نية، وهو ما يسمى بتصحيح السماع.

٢ - غلط القارئ في رسم الحروف وهو ما يسمى تحريف القراءة.

٣ - تحريف النص نصرة لرأى، مع معرفة وجه الحق فيه.

والحديث عن التصحيف والتحريف لا ينتهي كثرة وطرافة وهو متفرق في كتب الأدب مجموع في مظانه، والأخبار متضافرة على أن التصحيف وقع في القرآن مثلما وقع في الحديث واللغة والأدب. ومن أقدم من ألفت في التصحيف، حمزة بن الحسن الأصفهاني، المتوفى سنة ٣٦٠ هـ ألفت كتابا سماه: (التنبيه على حدوث التصحيف) وجاء بعده أبو أحمد العسكري، المتوفى سنة ٣٨٢ هـ وألف في ذلك كتابين أولهما: «شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف»، والثاني: «تصحيفات المحدثين» ولعل كتاب «التنبيهات على أغاليط الرواة» لعلي بن حمزة البصرى المتوفى سنة ٣٧٥ هـ مما يصح أن يجعل بين كتب التصحيف والتحريف.

(١) شرح ما يقع التصحيف والتحريف: ٢٠٧.

## الأخطاء النحوية

ويلحق بالتحريف: الأخطاء النحوية التي ارتكبتها النساخ، لأنهم لم ينتبهوا إلى ما هو مكتوب في النسخ الأصلية، فكثير ما يبدلون الصحيح في الأصل بالدارج في لغتهم، فتراهم مثلا يبدلون النصب والحزم بالرفع، والمؤنث بالمذكر، والفاء بالواو إلى غير ذلك، وقد يكثر خطوهم في الأعداد الحسائية، لأن العادة جرت أن ينطقوا بالأعداد طبقا للغة الدارجة ولهذا السبب فإن النسخ التي لا خطأ فيها في الأعداد نادرة.

وبحث الخطأ النحوي يحتاج إلى ملاحظة دقيقة، فقد يكون هذا الخطأ من النساخ، كما أنه قد يكون من المؤلف، والوصول إلى الحقيقة ليس سهلا، فيجب أن يتعرف المحقق على شخصية المؤلف، ليرى هل من المحتمل وقوع الأخطاء النحوية منه أو لا؟ ويجب أن يقدر قيمة النسخة، فإن كانت قديمة مشكولة بعناية تامة تدل على أن كاتبها حسن الفهم، رأينا أن خطأ الكاتب في النحو بعيد الاحتمال.

نسب صاحب القاموس إلى الفراء قوله: «والجر: أصل الجبل، أو هو تصحيف للفراء، والصواب: الجراصل، كعلابط: الجبل<sup>(١)</sup>» هذا كلام صاحب القاموس وتعقبه شارحه صاحب التاج فقال: «والعجب من المصنف، حيث لم يذكر «الجراصل» في كتابه هذا ولا تعرض له أحد من أئمة الغريب، فإذن لا تصحيف كما لا يخفى<sup>(٢)</sup>».

والمقابلة بين النسخ غير المناسبة، أى التي ليست من فئة واحدة، فإذا اتفقت على الخطأ عزوناه في مثل هذه الحالة إلى المؤلف، وكذلك إذا وجدنا الخطأ مضطربا في كل الكتاب عزوناه إلى المؤلف أيضا.

وهذه القواعد كلها احتمالية، فإذا وجدنا النسخ غير متفقة في الخطأ كان هناك احتمالان: إما أن يكون الخطأ ليس من المؤلف، وإما أن يكون من المؤلف وانتبه إليه بعض النساخ فأصلحه، ولا يمكن نسبة الخطأ إلى المؤلف إلا إذا وقعنا على النسخة الخطية التي كتبها بيده.

والعبارات المعتلة التي تحمل الخطأ النحوي مرجوحة، أجدر بالإثبات منها عبارة النسخة التي لا تحمل هذا الخطأ، كما أن التي تحمل الخطأ اللغوي أو يستحيل معناها المعنى أو ينعكس

(١) القاموس المحيط (جرر).

(٢) تاج العروس ٩٥/٣.

أو يستغلن فهمه هي رواية مرجوحة، أحق منها بالإثبات رواية النسخة السالمة من هذه العيوب، وهذا كله في النسخ الثانوية، أما النسخ العالية فإن المحقق حرى أن يثبت ما ورد فيها على علّاته، خطأ كان أو صواباً، على أن ينبه في الحواشى على صواب ما رآه خطأ، حرصاً على أمانة الأداء.

وقديماً قال النواوى: «ينبغي ألا يروى بقراءة لحن أو مصحف، وعلى طالب الحديث أن يتعلم من النحو واللغة ما يسلم به من اللحن والتصحيف، وطريقه في السلامة من التصحيف الأخذ من أفواه أهل المعرفة والتحقيق، وإذا وقع في روايته لحن أو تحريف فقد كان ابن سيرين وابن سخبرة يرويه كما سمعه. والصواب، هو قول الأكثرين يرويه على الصواب. وأما إصلاحه في الكتاب فجوزه بعضهم، والصواب تقريره في الأصل على حاله، مع التضييب عليه وبيان الصواب في الحاشية»<sup>(١)</sup>.

أما برجشتراسر فيروى قاعدة مؤداها: «أن النص الأصعب هو الصحيح» أى أننا إذا عثرنا على قراءتين إحداهما تفهم بسهولة والأخرى تفهم بصعوبة فضلنا الثانية. ويحتاج بذلك على أنه لا يتصور أن يبدل الناسخ شيئاً مفهوماً بشيء غير مفهوم، أو بشيء لا يفهم إلا بصعوبة، والمحتمل ضد ذلك. وعلى هذا يجب أن نحترز مما يسهل فهمه فكثيراً ما يختبئ الصحيح فيما مظهره غير مفهوم فعلينا إذن أن نستخرجه<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

(١) التقریب والتيسير: ٣١٧ - ٣١٨.

(٢) انظر برجشتراسر: ٨٦.

## المستشرقون، وأثرهم في تحقيق النصوص العربية

ظهرت كتب كثيرة في البلاد العربية تتحدث عن المستشرقين وتبرز جهودهم في مجالات الدراسات الشرقية عامة والعربية خاصة، ولكن هذه الكتب - أو ما تمكنا من الاطلاع عليه برغم قيمتها العلمية وبرغم تعدد جوانب دراستها - لا تعطينا تعريفاً ثابتاً محدداً للمستشرق! فيظل بذلك الفراغ قائماً، وفي حاجة إلى مزيد من الجهد لنصل إلى التعريف بالمستشرق.

عرّف المفكر الألماني المعاصر (رودي بارت)<sup>(١)</sup> الاستشراق فقال: «كلمة استشراق مشتقة من كلمة شرق، وكلمة شرق تعني مشرق الشمس، وعلى هذا يكون الاستشراق هو علم الشرق، أو علم العالم الشرقي».

ولكنه يجد نفسه في حيرة فيتساءل: ما معنى كلمة شرق؟ إن مفهوم الشرق يختلف تبعاً لاختلاف المكان والزمان، فقد تعرضت لفظة شرق في أعقاب الفتوحات العربية الإسلامية لتغيير كبير في معناها ومدلولها، وفي نهاية الأمر لا يصل بارت إلى تحديد ثابت نهائي لمفهوم كلمة شرق، ويعترف هو بذلك<sup>(٢)</sup> وإذا كان من الصعوبة وضع تحديد ثابت للشرق فإنه من العسير أيضاً تعريف المستشرق تعريفاً جامعاً مانعاً! ولكن يمكننا أن نرتضى أن مفهوم الاستشراق: هو تخصيص علماء غربيين في الدراسات الشرقية على اختلاف مجالها.

إذا فالمستشرق في أبسط صورة: عالم غربي يهتم بالدراسات الشرقية.

وكلمة (مستشرق) الفعل منها: استشرق أى طلب الشرق فالسين والثناء في هذا الفعل للطلب، وكان هؤلاء الذين يتعلمون لغة الشرق، ويدرسون علومه وحضارته، ليكون لهم علم تام بأحواله الاجتماعية والسياسية والعقلية، يطلبون بذلك أن يندمجوا فيه كل الاندماج، ليكون فهمهم له، وحديثهم عنه، وحكمهم عليه، خالياً من التخيل، بعيداً عن التوهم، أو بمنأى عن التزديد، والمبالغة.

والمستشرقون: جماعة من علماء الغرب - جمهورهم من الرهبان - تخصصوا في لغات الشرق وعنوا بالبحث فيها، والسؤال الذي يفرض نفسه الآن: متى كان ذلك؟

(١) الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية.

(٢) المرجع السابق ص ١٢.

ترجع بداية الاستشراق إلى القرن الثاني عشر، ففي عام ١١٤٣ م تمت ترجمة القرآن لأول مرة إلى اللغة اللاتينية، وكان ذلك على أرض الأندلس، وفي هذا القرن أيضاً ظهر أول قاموس لاتيني عربي، وفي القرن الثالث عشر، والرابع عشر بذل رايو ندوس لالوس - المولود في ميورقه - جهوداً كبيرة لإنشاء كراسى لتدريس اللغة العربية، وكان قد تعلم العربية، «وكان الهدف من هذه الجهود في ذلك القرن والقرون التالية هو التبشير: وإقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الإسلام، واجتذابهم إلى الدين المسيحى»<sup>(١)</sup>.

والمستشرقون - في غالبيتهم - يهود أو مسيحيون، أو ملحدون، حتى المسيحيون منهم، غير المسيحيين منا، فهم إما بُرُسْتَتِيَّون، أو كاثوليك، وجمهرة المسيحيين في مصر من الأرتوزكس، فكيف نتوقع من الأوربي المسيحى أو اليهودى أن يصدر من القول ما يناهل قولنا. إنه لو فعل ذلك وكان صادقاً لحكمنا عليه بالإسلام إن كان ما يقوله خاصاً بالدين ولو فعل غير صادق لكان منافقاً، ولو صحت منا العقيدة وسلم لنا المنهج العلمى، وجب علينا ألا نقبل أقوال المنافقين وإذن فالاختلاف بيننا وبين المستشرقين أمر طبيعى، لأن كلا منا ينهل من مهاد ثقافى مغاير، وليس في هذا شىء من التعصب على الإطلاق.

وحركة الاستشراق قامت أول ما قامت في رعاية الكنيسة الكاثولوكية، وخضعت لإشراف مباشر من كبار أبحارها، يذكر المؤرخ اللبناني المسيحى فليب دى طرازى أنه: «راح البابوات في القرنين الثاني عشر والرابع عشر يغرون قصادهم ورسلمهم ورهبانهم بتعلم العربية ترويحاً لحظتهم الكاثولوكية، وقرر مجمع فينا المنعقد في سنة ١٣١١ م برياسة البابا إقليميس الخامس: أن تؤسس دروس عربية وعبرية وسريانية في روما، على نفقة الحبر الأعظم، وفي باريس على نفقة الملك، وفي أكسفورد، وبولون على نفقة الرهبان، وذلك لكى يكون منهم المبشرون والوعاظ الذين يطوفون بالبلاد الشرقية، وكان سفراء الفاتيكان مكلفين من قبل البابا بمراقبة دروس العربية»<sup>(٢)</sup>.

ومن المعروف أن النهضة الأوربية قامت في أواخر القرن الخامس عشر؛ لتخلص الأوربيين من الاعتقادات والتقاليد البالية، والفلسفات الرثة، والرجوع إلى العلوم اليونانية والرومانية، وتلك هى النهضة الفكرية المعروفة بـ Remaissance وفي الأدوار الأخيرة من هذه الحركة ازداد ميل القوم في أوربا إلى معرفة الشرقيين وطرق تفكيرهم، إذ أن بين اليونان والرومان، وبين الشرق صلات دموية، وعلاقات روحية أدبية، ويصعب فهم فريق دون فهم الفريق الآخر، فجاء الانتقال من العلوم اليونانية اللاتينية إلى العلوم الشرقية

(١) بارت ص ٩ الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية.

(٢) دى طرازى - خزائن الكتب العربية ٥٧٧/٢ وانظر: المستشرقون لتجب العيفى ١/١٥٢.

سهلاً طبيعياً، ويعدون من مآثر البايبا «لاون العاشر» أنه احتفل سنة ١٥١٤م بافتتاح أول مطبعة عربية في فانو على ساحل الإدریاتیک<sup>(١)</sup>.



وإذا كان الاستشراق هو اهتمام الغربيين بعلوم الشرق كما قلنا، فأعتقد أن بداية الاستشراق على هذا الأساس هي ولا شك، فتوحات العرب في الأندلس، واستيطانهم بها حيث أنشأوا مدينة زاهية زاهرة بالمعارف والفنون، اقتبس منها الأوروبيون قسطاً وافراً، فقد كانت أوروبا قبل الفتوحات الإسلامية تسبح في دياجير الظلام، وقد بددت الحضارة العربية هذه الدياجير المالحكة، وأصبح العرب أساتذة للأوروبيين، إذ كان العرب فيما بين القرن الثامن وأوائل القرن الثالث عشر الميلاديين حملة مشاعل الثقافة والحضارة في ربوع العالم أجمع، وكانت الحضارة العربية هي أساس النهضة في أوروبا، وقد كتبت إسبانيا العربية الإسلامية صفحة من أروع صفحات تاريخ الحضارة في القارة الأوروبية والعصور الوسطى. يشهد بذلك الكاتب الإسباني الكبير بلاسكويايا في كتابه (في ظل الكاتدرائية) حين يتحدث عن بلاده فيقول: «في إسبانيا لم تأت النهضة من الشمال مع الجحافل البربرية، وإنما أتت من الجنوب مع الفاتحين العرب، لقد كانت حملة حضارية أكثر مما كانت غزوا. ومن هنا أتت إلينا هذه الثقافة الشابة القوية سريعة التقدم بطريقة مذهلة... فقد جاء من الشرق مع هؤلاء الغرباء: الحرير والقطن والبن والليمون والبرتقال والرمان، وكذلك السجاد والمنسوجات والتيل والمعادن الدمشقية والمساحيق، وبفضلهم كذلك عُرف العُدُّ العُشْرِي، والجبر، والكيمياء، والطب، وعلم الكون، والشعر المقفى. إن فلاسفة اليونان بعد أن كانوا على وشك الانطواء في النسيان قد استعادوا مكانتهم حين لازموا العربي في فتوحاته، ولقد سيطر أرسطو على جامعة قرطبة الشهيرة»<sup>(٢)</sup>.

ويذكر جارودي المعاصر: أنه قبل نهاية القرن التاسع الميلادي، ترجمت إلى العربية مؤلفات أرسطو وجالينوس وأفلاطون وبطليموس وأرشميدس، وكذلك ميكانيكا هيرون وكتاب (الأشكال القمعية) ومن سنة ٨١٣ - ٨٣٣ م وهي فترة لم تكن أوروبا قد تعلمت القراءة! أنشأ المأمون في بغداد أكاديمية ضخمة (بيت الحكمة) وأصبح بفضلها معرفة الثقافة اليونانية ميسوراً لجميع قراء القرآن، وهكذا فإن الثقافة العربية تعبر عن الوجه الأساسي لعصر النهضة الأوروبية، وهو الوجه الإنساني: أي بعث الماضي.

(١) انظر - دى طراز: خزائن الكتب العربية ٥٧٨/٢.

(٢) روجيه جارودي - أثر الحضارة العربية على الثقافة العالمية. مجلة الطليعة العدد ٢ سنة ١٩٧٠.

ومن الجسور التي اجتازت عليها علوم الشرق إلى الغرب: الحروب الصليبية التي تعتبر من أهم وسائل الاحتكاك الفكري بين العالم الإسلامي والعالم الأوربي، وبها تعرّف أبناء أوروبا بذخائر العرب الرياضية والفلكية والطبية والفلسفية.

يقول برنال: «إن الفضل أعظم الفضل للعلماء العرب في الحفاظ على هذا التراث وتدوينه ونقله والتأليف فيه، وإن العلماء العرب قد بلغوا في ذلك شأواً، وأنهم تفوقوا على الإغريق، إذ جعلوا العلم سهلاً مستساغاً فأقبل الناس على النهل منه، وكانت ميزة تفردها العلم العربي».

لقد أدرك الغربيون فضل العلماء العرب<sup>(١)</sup>، وكانت الجامعات الإسلامية في الشرق معقد آمال الغربيين، وكعبة قصادهم، وكان علماء المسلمين في تلك الجامعات يرحبون بضيوفهم وتلاميذهم، وأخذوا ينقلون هذه الدفاتر العلمية وترجمون هذه الكتب العربية إلى اللاتينية.

تقول المستشرقة الدكتورة «سيجريد هونكة» في كتابها (فضل العرب على أوروبا) أو (شمس الله على الغرب): إن أوروبا تدين للعرب وللحضارة العربية، وأن الدّين في عنق أوروبا وسائر القارات الأخرى للعرب كبير جداً، وكان يجب على أوروبا أن تعترف بهذا الصنيع منذ زمن بعيد، ولكن التعصب واختلاف العقائد أعمى عيوننا! وترك عليها غشاوة حتى إننا نقرأ ثمانية وتسعين كتاباً من مائة فلا نجد فيها إشارة إلى فضل العرب وما أسدوه إلينا من علم ومعرفة! اللهم إلا هذه الإشارات العابرة إلى أن دور العرب لا يتعدى دور ساعي البريد الذي نقل إليهم التراث اليوناني.

ويذكر المؤلف فيليب دي طرازي في الفصل التاسع من كتابه خزائن الكتب: «أن الاستشراق قام في بداية أمره لغاية دينية محضة، ثم توسع علماء الاستشراق فجعلوه سياسياً ولغوياً معاً».

وقد مضى الكلام عن التوجيه الديني للاستشراق كما ذكرنا عند بارت الألماني وكما رأيناه من فعل البابوات، ولتقف عند قول طرازي «سياسياً» لترى نصيب السياسة في توجيه حركة الاستشراق.



رأينا أن حركة الاستشراق بدأت دينية في أول نشأتها، وأخذت الطابع الثقافي قبل الغزو الاستعماري، وأول جماعة أسست لخدمة الاستشراق والانتفاع بجهد رجاله سياسياً قامت في

(١) للمستزيد أن يرجع إلى كتاب حضارة العرب لمستاف لوبون، والعرب في أوروبا للدكتور الحريوطي وبحث الدكتور فيليب حتى «دراسة المشرقيات في أوروبا». مجلة الهلال نوفمبر سنة ١٩٢٤ يجد كثيراً من التفاصيل التي توضح أثر الحضارة العربية على الحضارة الأوربية.

فرنسا في سنة ١٧٨٧ م تحت إشراف وزارة المستعمرات، ولم يكن حرص ملوك فرنسا بأقل من حرص أحبار الكنيسة، على إيفاد بعثات إلى الأمصار العربية لجلب ذخائر تراثها، وكان سفراؤهم يندبون رسمياً لهذا العمل السياسي، فيذكر صاحب (المستشرقون) نجيب العتيقي (ج ١/١٥٥): أن مكتبة باريس الوطنية المنشأة سنة ١٦٥٤ م تحوى ستة ملايين من الكتب والمخطوطات، منها سبعة آلاف مخطوط عربي، بينها نفائس علمية وأدبية وتاريخية قلما توجد في غيرها! وقد تكوّنت هذه المكتبة على أيدي المستشرقين الذين أوفدهم الوزير كولبر إلى الشرق، وما أرسله لها نابليون من حملته على مصر، وما ابتاعه قنصل فرنسا بالقاهرة! وهكذا تجمع للمكتبة قطع من القرآن على الرق، من القرن الثاني والثالث والرابع للهجرة. وفي كتاب (خزائن الكتب العربية) ٥٨٧/٢ أن في مكتبة دير الشوير ببلنات مخطوطة من كتاب وقيّات الأعيان لابن خلكان على هامشها حاشية أثبتتها (أبو النصر الخازن) الذي كان قنصلاً لفرنسا في بيروت على عهد الملك لويس الرابع عشر، وتنص الحاشية على أنه: «في سنة ١٦٧١ م أرسل عالي الجناب، الملك لويس الرابع عشر، رسله إلى جميع بلدان الإسلام؛ لشراء المخطوطات، وزود مبعوثيه بأوامر شريفة إلى جميع القناصل الفرنسية؛ ليضعوا رجالهم وأموالهم في خدمة هؤلاء المبعوثين»، وتفيد الحاشية أن مستشاراً للملك توجه إلى قبرص، فالشام، فمصر فإسلامبول، فبغداد، وظفر من كل بلد منها بكثير من المخطوطات<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

وقد أدت الأطماع الأوربية الاستعمارية إلى حرص دول أوروبا على اقتناء كنوز الشرق العربي والإسلامي، والكشف عن الحضارة العربية والتراث الإسلامي، فأحسنت كل دولة إلى مستشرقها فضمّهم ملوكها إلى حاشيتهم أمناء أسرار، وتراجم، وانتدبوا للعمل في سلكي الجيش والدبلوماسية إلى بلدان الشرق، ولوّهم كراسي اللغات الشرقية في كبرى الجامعات والمدارس الخاصة والمكتبات العامة والمطابع الوطنية، وأجزلوا عطاءهم في الحل والترحال، ومنحوهم ألقاب الشرف وعضوية الجامعات العلمية<sup>(٢)</sup>.

ومضى الاستشراق والغزو الاستعماري فترة طويلة في طريق واحد، فأخذ المستشرقون يقلّبون البحث في الآداب العربية ولغتها وتاريخها، وساعدوا على تحقيق عدد من المخطوطات التي نقلوها إلى مكتبات بلادهم أو استنسخوها على ذمة نشرها محققة، وقامت من أجل ذلك

(١) انظر مجلة الهلال فبراير سنة ١٩٢١ م العلوم الشرقية في مدارس أوروبا. وعدد نوفمبر سنة ١٩٢٤ م تاريخ دراسة الشرقيات في أوروبا.

(٢) المستشرقون ٣/١١٤٩.

صناعة نشر التراث العربى الإسلامى فى عدد من العواصم والمدن الكبرى فى أوربا، والمستشرق (كابنانى) الذى أنفق جهده وماله فى تاريخ حركة الفتح الإسلامى سجّل فى مقدمة (حوليات الإسلام) اعترافاً صريحاً بأنه إنما يريد أن يفهم سر المصيبة الإسلامية التى انتزعت من الدين المسيحى ملايين من الأتباع فى شتى أنحاء الأرض<sup>(١)</sup>.

والبحث العلمى متى انحرف عن غايته، سواء كان هذا الانحراف لمصلحة دينية أو سياسية، أعوزته النزاهة التى هى جوهر البحث، والحرية التى هى مناط سلامته.

وقد رأينا تفسيرات بعض هؤلاء المتعصبين مشحونة بأباطيل يزعمون أنها مما هدى إليه استقرارهم لتراثنا، ويفرضون لها حرية علمية، حيث يسوقون أدلة وشواهد من نصوص فى التراث انحرف بها الهوى والتعصب، فضلوا ضلالاً بعيداً.

ورأينا منهم من يجرد نفسه للبحث النزيه ثم يخونه الحق، أثرًا لما يسيطر على ذهنه ويسجله عقله الباطن من أفكار سابقة عن عقيدة المسلمين وتاريخهم، يعزّ عليه أن يتخلص من احتكامها فى توجيه النصوص.

#### والمستشرقون ثلاثة ضروب:

١ - ضرب لم يملك ناصية اللغة فأخطأ فى نشر الكتب، وفى فهم النصوص، لكنه حفل بأمور شكلية لا فائدة لنا منها.

٢ - وضرب أثرت فى دراساتهم مآرب السياسة والتعصب للدين، فوجهوا الحقائق وفسروها بما يوافق أغراضهم أو ما يسعون إليه، ولعل هذا الضرب هو الذى دفع الشرقيين من المسلمين العرب أن يرتابوا بالمستشرقين جميعاً، لأن من المؤسف أن يسخر هؤلاء العلم الذى يسمو به الإنسان لإذلال الإنسان أو استعباده، أو الطعن على تراثه وعقيدته بغير الحق.

٣ - لكن فريقاً ثالثاً أوتي الكثير من سعة العلم والتمكّن من العربية والإخلاص للبحث، والتحرر والإنصاف، فكانت دراساتهم مثمرة وأعمالهم مباركة، وكانوا جديرين بكل إجلال.

وفى العصر الحديث: ظهرت دوافع أخرى للاستشراق منها: الدوافع الاستعمارية والدوافع العلمية البحتة المخلصة، وانكشمت الدوافع الدينية وتضاءلت، ولكنها لم تنعدم، وكثيراً ما رأيناهم يوازنون بين الآداب العربية والآداب الأجنبية، أو بين العلوم العربية والعلوم الغربية، ليخرجوا دائماً بتفضيل الآداب الغربية على الآداب العربية والإسلامية،

(١) تراثنا بين ماضٍ وحاضر ٥٤.

وبالتالى إلى إبراز نواحي النشاط الثقافي للغرب، وتفضيلها على أمثالها في تاريخ العرب وآدابهم.

فمثلا عندما تناولوا تصحيح النصوص (وهو ما يعرف الآن بتحقيق النصوص) رأينا من يقول: إن هذا المنهج اتبعوه في نشر آدابهم القديمة، ثم انتقل إلى العرب بعد ذلك ! وإتنا لا ننكر أن هذا المنهج اتبعوه في نشر تراثهم، لكن الذى ننكره أننا أخذنا هذا عنهم ! فهذا المنهج عندنا كما سبق أن رأينا بالتفصيل منذ العصور الأولى للإسلام، ولكنى لا أغمطهم حقهم أقول: إنهم هم الذين أخذوا هذا المنهج عن العرب، فأحيوا به تراثهم، ثم نقلوه إلينا بعد أن أفادوا به وأضافوا إليه.

أخذ الأوروبيون عن العرب كل ما نفعهم يوم نهضتهم من ضروب المعارف البشرية، وهامهم اليوم يعيدون إلينا شيئا مما تعلموه من أجدادنا وزادوه بعلمهم، وبارتقاء الزمن وتداول الأيام، وهذه سنة المدينيات التى درجت عليها أجناس البشر، والعالم فريسة العامل، ومن كدح ربح، تقلبت على الحضارة أيد كثيرة، منذ دُون تاريخها، واليوم وصلت إلى هذا المظهر الباهر، ولا غضاضة على المتأخر إذا أخذ عن المتقدم، وما غايتهم من هذا التفاضل إلا خلق تحاذل روحى وشعور بالنقص فى نفوس الشرقيين! وحملهم من هذا الطريق على الرضا بالخضوع للمدنية العادية الغربية.

وإن الباحث ليرى أن الأطماع الاستعمارية الأوروبية بدأت فى العالم العربى والإسلامى منذ مطلع التاريخ الحديث، حينما كان الشرق العربى خاضعا للحكم العثمانى، وسارت حركة الاستشراق مع هذه الحركة الاستعمارية فى طريق واحد، ولما أصاب الدولة العثمانية الضعف الشديد كانت الحملة الفرنسية على مصر والشام هى الصورة الإيجابية العسكرية لبداية الأطماع الاستعمارية فى الشرق العربى، ونستطيع أن نقول باطمئنان: إنها أيضا بداية الاستشراق القائم على دوافع استعمارية.

وكانت حملة نابليون على مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١م) أولى الحملات الغربية فى التاريخ الحديث، كانت هذه الحملة مجهزة ببعثة علمية قوامها علماء أعلام فى كل ضرب من ضروب ثقافة ذلك العصر منها: الأثريون، والمهندسون، والأطباء، والمؤرخون، والمستشرقون والمترجمون، اللبنايون، والمصريون، والسوريون، من أمثال: ميخائيل صباغ (١٧٨٠-١٨١٦) الذى اتصل بالمستشرق دى ساسى والمبشر كاترمير وعمل فى المكتبة الوطنية بباريس، وإلياس بقطر من مصر (١٧٤٨-١٨٢١) أستاذ العربية فى مدرسة اللغات الشرقية بباريس، ونقولا الترك، ورفائيل زخور المولود فى القاهرة من أصل حلبى، وقد علم

العربية في باريس، ثم جعله محمد علي مديراً لمطبعة بولاق فمترجماً في مدرسة الطب، وكان العضو الشرقي الوحيد في المجمع العلمي المصري.

قَدِمَ هؤلاء الفرنسيون مزودين بمدنيّتهم الحديثة، وتقابلوا بهذه المدنيّة الحديثة مع مدنية العثمانيين، فكانت الغلبة للمدنية الحديثة، ومنذ ذلك الوقت أدرك العرب والمسلمون أهمية الحضارة، وأيقنوا أنه لا حياة لشعوب الشرق العربي إلا باتخاذ الوسائل الحديثة حتى تقاوم الغرب بأساليبه.

نشرت حملة نابليون بحوث علمائها، ورسومهم، وخرائطهم في كتاب «وصف مصر» (١٨٠٩-١٨١٣) ثم حلّ شامبليون رموز الكتابة الهيروغليفية بقراءة حجر رشيد (١٨٢٢) وألف لها أجزومية ومعجمها (١٨٣٢) فوضع أساس علم الآثار المصرية، ومهد السبيل للعلماء، للتنقيب عن عالم عظيم مفقود.

\* \* \*

وفي فترة حكم محمد علي في مصر توافد عدد كبير من المستشرقين، فقد رأى محمد علي تدعيم الجيش المصري من أجل تحقيق سياسة تكوين دولة واسعة يحكمها طوال حياته ويتوارث أبنائه الحكم فيها من بعده، كما رأى أن ينشئ المعاهد والمدارس العليا، من أجل مدّ الجيش بحاجاته من الأطباء والمهندسين والمهنيين وغير ذلك، واعتمد على خبراء أجانب في تدريب الجيش، وفي المعاهد والمصانع، ولذا قَدِمَ إلى مصر كثير من هؤلاء الخبراء واستشرق بعضهم وعاش طوال حياته في مصر وتأثر بالحياة الشرقية.

دخل المستشرقون بلدان العرب والإسلام لأغراض غير علمية أول الأمر كما ذكرنا، ثم استحالّت حركة الاستشراق إلى أغراض عامة بعد ذلك.

ويحدد المستشرق (بارت)<sup>(١)</sup> منتصف القرن التاسع عشر موعداً أصبح فيه الاستشراق علماً بعد أن تخلص المستشرقون من الآراء القديمة ومن كل ألوان الانعكاس الذاتي، وبعد أن اعترفوا للشرق بكيانه الخاص وحياته الخاصة، وعند ذلك اجتهد المستشرقون في نقل صورة موضوعية للشرق، وفهم الموضوعات الشرقية فهما موضوعياً، واستمرت جهود المستشرقين نحو تنقية الاستشراق من شوائبه الدينية والاستعمارية حتى تاريخنا المعاصر، حيث وصل الاستشراق إلى مرحلة التحول النهائي، فأصبح علماً قائماً على النقد «فإذا وضعنا - بقصد التبسيط - منتصف القرن التاسع عشر فإننا نعني بهذا فقط أن الصفة العلمية بالمعنى الحديث ظهرت في هذا الوقت على الاستشراق بوضوح أكثر من ذي قبل».

(١) الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية ص ١٢.

وقد نقل المستشرقون الاهتمام بالتراث العربي إلى داخل جامعاتهم، فأنشأوا بها كراسي للغات الشرقية والأدب العربي، كما في جامعات السربون بفرنسا، واكسفورد، وكمبرج بانجلترا، وليدن بهولندا.

والاختلاف بيننا وبين المستشرقين أمر طبيعي كما قلنا؛ لأن كل منا ينهل من منهل ثقافي مغاير وليس في هذا شيء من التعصب على الإطلاق.

ولكن ليس هذا الذى أقوله أننى أبرئ جميع المستشرقين من آثار التعصب على الإطلاق، بل من التعصب الذى يعنى ويصم، وأقول إنهم مثلنا بشر، يحاول كثير منا ومنهم أن يخلص للمنهج العلمى. فيفلح كثيراً ويحقق أحياناً، كما يضل الهوى جماعات منهم ومنا أيضاً. إذن هل يجب علينا أن نتجاهل ما يقولون ويكتبون، مادام هذا اختلاف طبيعياً ولا بد منه..؟

لا.. وألف.. لا.

فمن واجب القادرين منا أن يطلعوا على هذه الأقوال؛ ليعرف ما ينشر في الغرب عنا، فإذا قدر له أن يكتب باللغات الأجنبية، سعى إلى أن يعطى الصورة التى يؤمن بصحتها، عارفاً بما يناقضه ليفنده، وبما يؤازرها ليؤكد.

ومن واجب العلماء المتميزين منا، أن يطلعوا على هذه الأقوال؛ ليعرفوا الآراء المغايرة، فتشترى رؤاهم.

ومن واجب الباحثين والدارسين الاطلاع عليها والإفادة منها، مع النصح لهم بفهمها، وفهم مهادها وظروفها، ومعرفة أين، ومتى، يمكن الرجوع إليها. وإثراء البحث بها.

وليس من صالحنا فى شيء أن نهاجم دون أن ندرس، بل أن نحسن الدرس لنحسن الفهم، فنحسن التصور، فحسن الاستفادة عندما نريد الاستفادة، ويجب علينا ذلك، ونحسن النقد عندما نظطر إليه، فيقوم نقدنا على قواعد وطيدة تكسبه الصحة والبقاء.

وقد ظهر نشاط الاستشراق والمستشرقين خلال القرن التاسع عشر فى صور متعددة منها:

#### ١ - استعانة المستشرقين بالعلماء العرب:

استعان المستشرقون كثيراً بأهل اللسان العربى، فى تحرير نصوص التراث العربى ونشرها عندما أنشأوا بجامعاتهم كراسى للغات الشرقية والأدب العربى، ومن عجيب ما يذكر أنهم قد أنشأوا فى هذه الأقسام التى تعنى بالتراث العربى، وظيفة: «قارئ نصوص» بجانب الأساتذة والمحاضرين، وقد عمل فى هذه الجامعات بعض الأساتذة العرب، مثل

الشيخ حسن توفيق العدل، الذى تعلم فى الأزهر وتخرج فى مدرسة دار العلوم سنة ١٨٨٧م، وكان معلماً للغة العربية فى المدرسة الشرقية ببرلين، مدة خمس سنوات، واختير أستاذاً للغة العربية فى كمبردج بإنجلترا، سنة ١٩٠٣م وخلال السنوات التى لم تطل قبل موته المفاجئ، ترك مؤلفات كثيرة، طبع بعضها.. ومن أهم ما تركه: «البيدادوجيا» الذى رأينا طبعته سنة ١٨٩١م وقد رأيناه فى معرض خريجي دار العلوم الذى أقيم سنة ١٩٩١م بمبنى الدار فى جامعة القاهرة وكان له فيه أيضاً «تاريخ آداب اللغة العربية» الذى طبع بعد وفاته بعامين سنة ١٩٠٦م وكذلك «أصول الكلمات العامية» الذى طبع سنة ١٨٩٩م، وكان حسن توفيق العدل من أعضاء الجمعية الآسيوية الملكية بلندن، ولم يكن فيها أجنبى عن الإنجليز غيره، وتوفى هناك سنة ١٩٠٤م ثم نقل إلى مصر.

وقد بدأت الاستعانة بالخبرات العربية مبكرة، فمن أوائل من استفاد منهم المستشرقون: رزق الله حسون: صحافى متأدب، ولد فى حلب سنة ١٨٢٥م وتنقلت به الأيام بين تركيا وروسيا وإنجلترا، فأجاد لغاتها، وتنقل أيضاً فى باريس، ولندن، ومصر؛ لجمع المخطوطات العربية واستنساخها، فكانت أساساً لمكتبته المعروفة بلندن.

الشيخ محمد عياد الطنطاوى الجوهري: نسبة إلى المحلة الجوهريّة أحد قسمي محلة مرحوم، وقد يقال له: «الطنطاوى المرحومى» نسبة إلى «محلة مرحوم» وهى إحدى البلاد الكبيرة المجاورة لمدينة طنطا، وتعتبر الآن ضاحية من ضواحي طنطا، عاصمة محافظة الغربية.

وتعلم فى معهد طنطا الدينى، وتخرج فى مدرسة دار العلوم سنة ١٨٩٣م، ودرّس فى معهد طنطا الدينى وفى مدرسة دارالعلوم، واتصل به بعض المستشرقين، فدعى لتدريس اللغة العربية فى معهد اللغات الشرقية ببطرس بوج (ليننجراد) من أعمال روسيا، فسافر إليها سنة ١٢٥٦هـ واستمر يعمل بها إلى أن توفى هناك، وقد تخرج عليه بعض المستشرقين من الروس وغيرهم. وله حوالى ثلاثين مؤلفاً فى النحو والفلسفة والإسلاميات.

إبراهيم عبد الفتاح طوقان: من الذين استعان بهم المستشرقون، وهو شاعر فلسطينى ولد سنة ١٩٠٥م وتوفى سنة ١٩٤١م وقد تعلم فى الجامعة الأمريكية ببيروت وبرز فى الأدبين: العربى والإنجليزى.

وقد ساعد المستشرق الأمريكى لويس نيكول فى نشر النصف الأول من كتاب (الزّهرة) الذى طبع بمطبعة الآباء اليسوعيين فى بيروت سنة ١٩٣٢م على نفقة المعهد الشرقى فى جامعة شيكاغو.

وتلا هذا الجيل نفر من أفذاذ العلماء العرب، أفاد منهم المستشرقون إفادات طيبة، أذكر

منهم: أحمد زكي باشا، (شيخ العروبة) وأحمد تيمور باشا، ومحمد محمود بن التلاميذ التركي الشنقيطى بمصر. والشيخ طاهر الجزائرى، فى دمشق، وحسن حسنى عبد الوهاب، فى تونس، وابن أبى شنب، فى الجزائر، وعبد الحى الكتّانى، فى المغرب الأقصى.

## ٢ - الجمعيات الآسيوية والمعاهد الشرقية:

وهى جمعيات أنشأها المستعمرون أول الأمر لدراسة شئون المستعمرات التى يحكمونها ومعرفة لغاتها، وتاريخها، ومن أشهرها: الجمعية الآسيوية بلندن التى أسست سنة ١٧٢٣م، والجمعية الآسيوية بفرنسا سنة ١٨٢٠ ولكل منها مجلة مشهورة تعنى بالبحوث الإسلامية والشرقية والعربية، كما تقوم بنشر الكتب العربية المخطوطة نشرًا علميًا، تعنى فيه بالتعليقات والفهارس المنظمة وترجمة لمختارات من النصوص.

وقد صار لكل من ألمانيا وإيطاليا وأمريكا جمعيات آسيوية ذات نشاط ملحوظ، وتعددت معاهد الدراسات الشرقية، ومن أشهرها: معاهد روما، وموسكو، وطشقند، ومدريد، ولندن، وباريس.

## ٣ - المؤتمرات:

ومن نشاط المستشرقين المؤتمرات التى تعقد فى المدن الكبرى، ويدعى إليها المستشرقون من مختلف الدول، كما يدعى إليها الأفاضل من علماء الشرق، وتلقى فيها البحوث وتُدور المناقشات، وقد كان لهذه المؤتمرات أثر واضح فى نهضة التحقيق عند العرب، إذ كان من علماء الشرق الذين حضروا هذه المؤتمرات عبد الله فكرى، وأحمد زكى، وأمين الخولى، وعائشة عبد الرحمن، وغيرهم من الأوائل الذين لهم باع فى هذا الحقل.

وقد عقد أول مؤتمر فى باريس سنة ١٨٧٣ ثم توالى المؤتمرات وصارت تعقد دورياً كل ثلاث سنوات. وبلغ عدد الدورات ستاً وعشرين دورة عقدت كلها فى مدن أوربية ماعدا الدورة الثالثة والعشرين التى عقدت فى تركيا سنة ١٩٥٤م والدورة السادسة والعشرين التى عقدت فى نيودلهى سنة ١٩٦٤م وتقرر فيها عقد الدورة التالية فى أمريكا<sup>(١)</sup>.

## ٤ - جمع نفائس المخطوطات:

وقد عنوا بجمع المخطوطات أيام محنة المسلمين فى الأندلس وصقلية، وفى أيام الحروب الصليبية، وعندما دخلوا بلادنا فاتحين، حتى تجمع فى مكتبات الغرب ما يزيد على ربع مليون

(١) للمستزيد أن يرجع إلى كتابى السفر إلى المؤتمر لأحمد زكى ومؤتمر المستشرقين الدولى فى نيودلهى (عائشة عبد الرحمن ضمن كتاب تراثنا بين ماضٍ وتغاضٍ)

كتاب ١ ومن أشهر هذه المكتبات : مكتبات برلين، وباريس : المكتبة الأهلية بباريس المنشأة سنة ١٦٥٤م، ومكتبة برلين التي تأسست عام ١٧٥٣م وهاتان المكتبتان أغنى مكتبات أوروبا بالمخطوطات العربية، وليدن في هولندا، والاسكوريال بإسبانيا، وروما وصقلية بإيطاليا، وليننجراد وموسكو بالاتحاد السوفيتي وبرنستون بأمريكا<sup>(١)</sup>.

ولا تنتظر مني أن أحصى اليوم ما جمعوا من تراثنا، لا لأن المجال يضيق عنه فحسب، ولكن لأن الأمر فيه يفوت العد والاحصاء، يكفي أن أذكر لكم مثلاً أن فهارس المخطوطات العربية في مكتبة برلين وحدها، كانت تملأ حتى عام ١٩٣٠ عشر مجلدات ضخمة، وأن أحد طلاب جامعة برستون القدامى أهدى إلى جامعته مكتبة، من بينها ٦٠٠٠ مخطوط عربي، كانت في حوزة واحد فحسب من مستشرقي الإنجليز، ستة آلاف مخطوط عربي.

ولا يتسع المجال لذكر أشهر المستشرقين في كل بلد فهم كثرة، ولذا سأكتفي بذكر عدد قليل ممن ذاعت شهرتهم، وكان لهم أثر واضح في نهضة التحقيق، وأدوا خدمات عظيمة للغة العربية وآدابها وعلومها. ومن أشهر المستشرقين الفرنسيين:

البارون دي ساسي (١٧٥٨ - ١٨٣٨)م قد يسأل طالب: لماذا قدمت هذا المستشرق على سائر المستشرقين؟ فأقول: قدمته لما لهذا المستشرق بالذات من أثر واضح في سائر المستشرقين في أنحاء أوروبا، إذ يسميه بعضهم (أبا المستشرقين)، فالكثير منهم تتلمذ على يديه في فن التحقيق والنشر، وبعد من أساتذة العربية الأول في أوروبا كلها. فقد كان واسع الاطلاع على اللغات الشرقية. تعلم اللاتينية واليونانية، ثم انقطع إلى العربية والفارسية مع علمه بالتركية والعبرية.

كان سلفستر دي ساس، بالإضافة إلى ما قام به من نشرات، يعمل مدرسا أولاً وقبل كل شيء ويرجع إليه فضل تحول باريس إلى مركز للدراسات العربية، وكعبة يؤمها التلاميذ والعلماء من مختلف البلاد، ليتعلموا على يديه.

ذهب إليه من ألمانيا على سبيل المثال لا الحصر جيوج فيلهلم فرايتاج (١٧٨٨- ١٨٦١م) مؤلف المعجم العربي اللاتيني الذي لا يزال يستعمل إلى اليوم، وجوستاف فلوجل (١٨٠٢-١٨٧٠) الذي نشر القرآن ونشر فهرسا لآيات القرآن، وكتاب الفهرست لابن النديم، وكتاب كشف الظنون لحاجي خليفة وهاينرش ليبيرشت فلايشير (١٨٠١-١٨٨٨). الذي أخرج طبعة دقيقة من تفسير البيضاوي ما زالت تستعمل إلى يومنا هذا<sup>(٢)</sup>.

تتقف دي ساسي بالأدبين، اللاتيني واليوناني، وحببت إليه العربية، فأخذ يدرسها مع

(١) للمستزيد أن يرجع إلى كتاب المستشرقون لتجيب العفيقي ١: ٣٤٧، ٣٥٣، ٤٤٠.

(٢) انظر الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية ص ١٨

العبرية، والفارسية، والتركية! وقد أحسن من اللغات الأوربية: اللاتينية، والألمانية، والإسبانية، والإيطالية، والإنجليزية، ثم تعرف إلى يهودى يقيم في باريس، فزاده تضلعاً من العبرية والعربية، فأكب عليها إكباباً هزله وأرغمه على الاكتفاء بها.

وفي سنة ١٧٧٨م عينه الملك واحداً من ثمانية أعضاء في جمعية نشر كنوز المخطوطات الشرقية في مكتبة باريس الوطنية، فلما بلغ الثانية والثلاثين من عمره كان في طليعة المستشرقين العالميين، ومن أعضاء مجمع الكتاب والآداب سنة ١٨٧٥م.

وفي سنة ١٨٢٢م أُلّف بمساعدة بعض مريديه الجمعية الآسيوية، وأنشأ مجلتها الشهيرة، فانتخب رئيساً لها، وقام على رئاستها ست عشر سنة، ومات سنة ١٨٣٨م بعد أن قضى حياته في خدمة الاستشراق بالتعليم والتصنيف والتحقيق والترجمة، وتأسيس الجمعية الآسيوية وإصدار مجلتها، فعد إمام المستشرقين في عصره، واختلف العلماء من أوربا قاطبة عليه، وأخذوا عنه، ونظموا الاستشراق في بلدانهم على نمطه<sup>(١)</sup>.

ونعرف من تتلمذ عليه من العرب: رفاة الطهطاوى وميخائيل صباغ، وغيرهما، ونعرف من آثاره التي نشرها: جزءاً من كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، ونبذة من المواعظ والاعتبار - وكلاهما للمقرئى - ومقامات الحريرى. ونشر أيضاً الإفادة والاعتبار بما في مصر من الآثار لعبد اللطيف البغدادى، وكليلة ودمنة، وألفية ابن مالك بشرح وتعليق سنة ١٨٣٣م.

ونعود إلى المستشرقين على وجه العموم فنذكر مع غيرنا أن الجهد الذى بذله المستشرقون في إحياء التراث العربى جهد لا يستطاع إنكاره فهم كانوا أساتذة الجيل الحاضر في الطريقة العلمية التى جروا عليها.

ومع هذا فإنى أكرر القول: أن تحقيق النصوص وتوثيقها فن عربى أصيل يتجلى في معالجة أسلافنا الأقدمين لرواية كتب الحديث واللغة والشعر والأدب والتاريخ، في دقة وأمانة ونظام بارع، ولكن المستشرقين تبَّنوا إحياء هذا الفن في هذه العصور القريبية، ونبغ من بينهم علماء أمناء قاموا بنشر عيون ثمينة من التراث العربى على الوجه الأمثل نذكر منهم:

وستنفيلد الألماني (١٨٠٨ - ١٨٩٩) الذى أُلّف وحقق نحو مئتي كتاب بين صغير وكبير<sup>(٢)</sup> وقضى عمره كله مكباً على العربية بين مؤلف ومحقق في لغتها وأدبها وتاريخها وجغرافيتها. وما نشره كتاب (مختلف القبائل ومؤتلفها) سنة ١٨٥٠م عن نسخة بخط

(١) انظر المستشرقون ١ / ١٧٩

(٢) معجم مطبوعات سركيس النهر ١٩١٧ - ١٩١٨.

المقرزي المؤرخ، وقد أثنى على عمل وستنفيلد هذا شيخنا حمد الجاسر في نشرته الثانية للكتاب، ونشر أيضاً المعارف لابن قتيبة سنة ١٨٥٠م.

وبيفان البولندي (١٨٥٩ - ١٩٣٤) ناشر نقائض جرير والفرزدق في ليدن سنة (١٩٠٥-١٩٠٧م)، وتحقيقه لها وتفسيره للألفاظ التي لم ترد في المعاجم مما يذكر له بالتقدير. ثم صنع للنقائض فهرساً جامعاً في ٦٣٧ صفحة وطبع في ليدن سنة ١٩٠٨-١٩١٢م. تشارلس ليال الإنجليزي (١٨٤٥-١٩٢٠) محقق شرح الفضليات لابن الأنباري سنة ١٩٠٨ وشرح المعلقات السبع، للتبريزي. ودواوين: عبيد بن الأبرص، وعامر بن الطفيل، وعمرو بن قميئة.

جاير الألماني (١٨٦١ - ١٩٢٩) محقق ديوان الأعشى في عناية فائقة وتخريج مستفيض. ونعرف من المستشرقين الإنجليز أيضاً: مرجليوث ونيكلسون وجب. ومن الألمان غير من ذكرنا: نولدكه وبروكلمان. ومن الهولنديين: دوزي ١٨٨٣ ودي غويه ١٩٠٩ وجولد تسيهر ١٩٢٩. وجويدى الكبير وابنه جويدى الصغير: من إيطاليا.

وقد استعانت بالكثير منهم الجامعة المصرية القديمة في التدريس، وتلمذ عليهم كثير من كبار أدبائنا في مقدمتهم: الدكتور طه حسين، وقام المستشرق الألماني<sup>(١)</sup> برجشتراسر بتدريس (أصول نقد النصوص ونشر الكتب) في كلية الآداب سنة ١٩٣١ وقد طبعت هذه المحاضرات في دار الكتب المصرية سنة ١٩٦١ بمعرفة أحد تلاميذه<sup>(٢)</sup>.

كراتشكوفسكى الروسى (١٨٨٣ - ١٩٥١) ولد في فيلنا، وانتقل أبوه - وكان مديراً لمعهد المعلمين بها - إلى طشقند وعمره سنتان، فكان أول ما تفتح عليه بصره، المساجد، والأسواق الشرقية، ثم عاد إلى مسقط رأسه فيلنا، حيث عُيِّن أبوه مديراً للمكتبة العامة ورئيساً للجنة الآثار، فدرس في كلية اللغات الشرقية بجامعة بطرس بورج (ليننجراد) وفي تلك الكلية تعرف على كثير من علماء الشرق، ومنهم الشيخ محمد عياد الطنطاوى المصرى

(١) كتاب المستشرقون لتجيب العقبى كليل بأن يبين ضخامة المهود التي قام بها هؤلاء المستشرقون وهذا الكتاب في طبعته الأخيرة بدار المعارف يقع في أربعة أجزاء أى في ١٤١٤ صفحة.

(٢) جمعها الدكتور محمد صدق البكرى وأشرف على طبعها تحت عنوان (أصول نقد النصوص ونشر الكتب) في مركز تحقيق التراث التابع لدار الكتب، وأضاف إلى المطبوع من عنده كما حذف منه - وبذلك فهذه النشرة لا تمثل وجهة نظر برجشتراسر تماماً بل هي خليط من برجشتراسر والبكرى. وأعيد نشرها مرة ثانية في مكتبة المريح بالرياض، بعناية الدكتور عبدالستار الجلوحي.

وبعض الأساتذة اللبنانيين. ثم أرسل في بعثة علمية للتوسع في دراسته العربية والتزود من المخطوطات، فأقام عامين (١٩٠٨-١٩٠٩م) في سوريا ولبنان نذكر من أصدقائه في لبنان الأب لويس شيخو، وفلسطين، ومصر، فزار المعاهد والمكتبات ووطد علاقات وثيقة مع كثير من العلماء العرب، نذكر من أصدقائه المصريين: أحمد باشا تيمور، وشيخ العروبة أحمد زكي باشا، وعاد من كل ذلك يزاد وفير ذكر بعضه في كتابه: «مع المخطوطات العربية، صفحات الذكريات عن الكتب والناس» ونشر مترجماً إلى العربية عن دار التقدم بموسكو، عام ١٩٦٣م.

وقد انتخبه المجمع العلمي العربي بدمشق عضواً مراسلاً سنة ١٩٢٣م وعنى بالأدب العربي قديمه وحديثه عناية بالغة، وكتب في ذلك دراسات غزيرة جداً. ومن النصوص العربية التي نشرها: الأخبار الطوال، لأبي حنيفة الدينوري، سنة ١٩١٢، وديوان الواواء دمشقي ومن أنفـس دراساته كتابه «تاريخ الأدب الجغرافي العربي» وقد ترجمه إلى العربية ونشر في مصر سنة ١٩٦٣ نشرته الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، وطبع في مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. وله ما يربو على أربع مئة وخمسين أثراً بين مؤلف ومترجم ومحقق.

ولا أستطيع أن أجلو صفحة هؤلاء المستشرقين ولكن ألفت نظر الباحث إلى كتاب (المستشرقون) لنجيب العقيقي، وهو كتاب ضخم في ١٤١٤ صفحة. هذا الكتاب كفيـل بأن يبين ضخامة الجهود التي قام بها هؤلاء المستشرقون وقد طبع هذا الكتاب في دار المعارف بالقاهرة أكثر من مرة.

كارل بروكلمان (١٨٦٨-١٩٥٦م) هو أشهر المستشرقين عند الباحث العربي عامة، وعند الباحث في التراث العربي خاص، إذ مكن له عندهم كتابه العظيم: «تاريخ الأدب العربي» الذي يعدّ أوفى مرجع في ذكر مكان المخطوط العربي سواء كان في البلدان العربية أو الأوربية<sup>(١)</sup>، وقد ترجم كله إلى العربية بإشراف الدكتور محمود فهمي حجازي ويجري الآن طبع هذه الترجمة في الهيئة المصرية للكتاب، وقد جاء بعده العالم التركي فؤاد سزجـين وألف كتابه العظيم «تاريخ التراث العربي» بالألمانية أيضاً، وترجم في جامعة الإمام محمد بن سعود، وقد اعتمد سزجـين في كتابه المذكور على بروكلمان وزاد عليه<sup>(٢)</sup>.

نعود إلى بروكلمان فنقول: نال شهادة الدكتوراه في الفلسفة واللاهوت، وأخذ العربية واللغات السامية عن نولده وأخرين، وكان من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق، ومجامع علمية أخرى كثيرة، وقد حرر مواد كثيرة في دائرة المعارف الإسلامية، ونشر عيون الأخبار لابن قتيبة سنة ١٩٠٨ وغيره الكثير من الكتب.

(١) انظر مقدمة الجزء الأول .. ترجمة دكتور عبدالحليم النجار ط دار المعارف سنة ١٩٦٨

(٢) انظر المقارنة بين هذين الكتائين ص ٣٠٠-٣٠١ من هذا الكتاب

برجشتراسر الألماني (١٨٨٦-١٩٣٣) ولد وتعلم في مدينة (ليبيج) وأخذ العربية عن فيشر، ثم قام برحلة إلى الشرق، فزار: الأناضول بتركيا، وسوريا، وفلسطين، ومصر وتوفي متردِّياً من قمة جبل من جبال الألب، في أثناء رحلة رياضية.

قدم مصر أستاذاً زائراً عام ١٩٣١-١٩٣٢ وألقى في جامعتها محاضرات في تطور النحو العربي، ومحاضرات في قواعد نشر النصوص العربية<sup>(١)</sup>، ومما نشره: طبقات القراء لابن الجزري، ويسمى غاية النهاية، وقد عني عناية خاصة بالقرآن الكريم فكانت رسالته للدكتوراه عن حروف النفي في القرآن الكريم، ونشر في ليبيج سنة ١٩١١م ثم كانت رسالته للأستاذية بعنوان «معجم قراء القرآن وتراجمهم».

وإلى جانب من ذكرنا لانزال نلمس صنيع المستشرقين المعاصرين في خدمة التراث، ولعل أقرب مثال: مارأيناها بأعيننا في الجامعة العربية حيث كان استقبال الدكتور سلفادور جوميز نوجاليس، أستاذ تاريخ الفلسفة الإسلامية في جامعة مدريد بأسبانيا ورئيس جمعية الصداقة العربية الإسبانية ونائب رئيس الجمعية الدولية لفلسفة العصور الوسطى.

وبهنا في الموضوع أنه مدير مشروع إحياء الفلسفة الإسلامية الأندلسية الذي يشرف عليه المجلس الأعلى للبحوث بوزارة الثقافة الإسبانية التي خصصت لهذا المشروع ستة ملايين بيزيتا.

وقد استعان في هذا المشروع بالعلماء العرب نذكر منهم: الدكتور محمود قاسم والدكتور صلاح فضل في أثناء دراسته في أسبانيا.

والدكتور نوجاليس المذكور يعمل منذ سنة ١٩٧٣، في تحقيق كتاب النفس لابن رشد، وقد قام بهذه الجولة في البلاد العربية بحثاً عما يكون هناك من مخطوطات للفيلسوف العربي ابن رشد<sup>(٢)</sup>.

وجمعية المستشرقين الألمان المنشأة سنة ١٨٤٥م في هاله.. أخذت على نفسها دراسة تراث العرب، وتحقيق ونشر ذخائره، ومواصلة مباحثه في المعاهد والجامعات، وأنشأت عدة فروع في الشرق من أهمها: فرع الأستاذة سنة ١٩١٨م الذي تولى الإشراف عليه وتأسيس مكتبته المستشرق ريتز، فقام مع غيره بنشر طائفة من كتب التراث الهامة منها: مقالات الإسلاميين للأشعري، والوفائي بالوفيات للصفدي بتحقيق ريتز، والمحتسب لابن جني بتحقيق برجشتراسر.

(١) وهي التي أشرنا إليها في الهامش رقم ٢ سابقاً ص ١٨٩ وقلنا إنها طبعت في مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية ثم أعاد الدكتور عبد الستار الحلوجي طباعتها في دار المريخ بالرياض .

(٢) أنظر نشرة أخبار التراث العربي (معهد المخطوطات بالجامعة العربية) للعدد ٣٣ .

ثم فرع القاهرة الذى سُمى بمعهد الآثار، وكان يديره روبر الذى حقق الجزء التاسع من كنز الدرر وجامع العصر، للدادوى، ثم معهد الدراسات الشرقية فى بيروت سنة ١٩٦٠ ومن جهوده إتمام نشر كتاب الوافى بالوفيات للصفدى، وطبقات المعتزلة بتحقيق السيدة فليتر دى فالد من معهد استانبول، وكتاب نور القبس، المختصر من المقتبس للمرزبانى، اختصار المحافظ اليونى بتحقيق زهايم من جامعة فرانكفورت.

\*\*\*

وفى القرن الماضى، عندما نشطت حركة الاستشراق رأى المستشرقون أنفسهم، أمام خضم زاخر من مخطوطات التراث العربى ملأت مكتباتهم، والتي جُمعت قبل ذلك على أيدى غيرهم، من الباحثين عن كنوز الشرق، الدارسين لعقليته وتاريخه وحضارته، هذا التراث الذى لفت أنظارهم ووجه اهتمامهم إلى ما فيه من علوم وفنون ومن أدب وحكمة، هذا التراث الذى كان يوما من الأيام درر مكتبات المشرق والمغرب العربيين مثل: بيت الحكمة ببغداد، والعزیز بالله الفاطمى بالقاهرة، والمدرسة النظامية، وخزانة كتب النجف الأسرف، وخزانة سيف الدولة بحلب، والمدرسة النورية، ومكتبة أبى الفداء بحماة، والظاهرية بدمشق، وبنى عمار بطرابلس.

وكذلك فى المغرب: مكتبة الزهراء بقرطبة، والجامع الأعظم بالفيروان، وجامع الزيتونة بتونس، وجامع القرويين بفاس، والحكمة براكش، والجامع الأعظم بمكناس.

هذا التراث الذى ملأ كل هذه المكتبات وغيرها لم يبق محفوظا بل تشتت شمله، وتفرق جمعه! وتلف بعضه على أيدى الحملات الأوربية التى أغارت على الشرق فأضاعت منه الكثير، وحملت معها ما استطاعت حمله، كما تلف بعضه على أيدى العرب أنفسهم نتيجة اختلافهم فى المذاهب والآراء، وقضى على معظمه فى الشرق (هولاكو) التتورى فى حملته المشهورة على بغداد سنة ٦٥٦ هـ.

وانتقل الكثير من هذا التراث الضخم إلى أوروبا الظافرة التى كانت تحاول جهودها جمعه من كل أنحاء العالم العربى، الذى كان فى سبات عميق لم يفق منه إلا وقد رأى أنه باعه بـشمن خس دراهم معدودة، وهكذا استطاع الغرب أن يمتلك من تراثنا أكثر مما نملك! ولعل هذا يفسر لنا السر فى ذلك الخضم الزاخر من مخطوطاتنا العربية التى نجدها ونسمع عنها فى مكتبات العالم الأوربى وغيره.

ولست أتردد أن أعلن هنا الإقرار بما لهم من فضل على تراثنا لا يجحده إلا جاهل أو مكابر، فإننا ندين لهم بجمع ذلك التراث الغالى وصونه من الضياع، ولست أدري: ماذا كان يصيبنا من خسارة فادحة، لو لم تنجرد هذه الحملة من رجال الاستشراق، فتجوب أقطار

الشرق العربي والإسلامى باحثة عن كنوزه الثقافية المضيعة.

وتسألون : ماذا لو تركوه لنا، أما كنا أهلاً لجمعه وصونه ؟ فأجيبكم بملء يقيني : كلا.. فقد شاء الله أن يلتفت أولئك الأجانب الغرباء إليه تراثنا الفكرى أيام كنا فى غفلة عنه، لانكاد نحس وجوده، أو نعرف قيمته، أو نفدر حاجتنا إليهم فمضوا يجمعونه فى غفلتنا، وكان إذ ذاك أنسبه بلقى هين، وبضاعة رخيصة، لا تساوى وزنها ورق عند خدام المساجد، الذين كانوا حتى مطلع القرن العشرين، هم حراس تلكم الكنوز، ورحم الله أجدادنا. وضعوا تروتنا الفكرية والروحية فى بيوت الله ودور العبادة، وهم يحسبون أنها هناك بأمن من الضياع، ولم يدروا أنه سوف يأتى حين من الدهر، يؤمن فيها خدام دور العبادة على تلك الكنوز دون رقيب، فيبيعونها بالكوم لتجار الترمس والقول واللبن، كى يغلفوا فيها بضائعهم، قبل أن تكثر الصحف والمجلات وتؤدى هذه المهمة.

ذكر الكونت فيليب دى طرازى أن خادما يدعى: «ابن السليمانى» فى منتصف القرن التاسع عشر عيّن خازناً لثلاث مكاتب كبرى فى مساجد مصر، وجعل له ديوان الأوقاف راتباً شهرياً قدره ٢٥ خمسة وعشرون قرشاً، وكان الرجل يستعين على العيش ببيع قصب السكر، فجعل يقف فى زاوية تحت سلم مدرسة السلطان حسن، ويضع بجانب بضاعته من لقصب، أكداً من مخطوطات المكاتب الثلاث، يبذلها لمن يدفع له القرش والقرشين<sup>(١)</sup>.

ومما لا شك فيه أن العلوم العظيمة والحكم الغالية والخبرات الجمة التى احتوتها هذه المخطوطات، كانت أول بصيص من النور أضاء للغرب طريقه كما أسلفنا، حيث ترجمت أكثر المخطوطات العلمية، وتمثلها كثير من الباحثين، وأخذوا ما فيها من نظريات غيرت مجرى حياتهم من بداوة إلى حضارة، ومن عصور وسطى سيطرت عليهم فيها خرافات الجهل وأساطير الأوهام، إلى عصور حديثة راقية مملوءة بالعلم والعرفان!

وإذا كان تراثنا بهذه القيمة فلا عجب أن يهتم المستشرقون بجمعه وفهرسته وتقديمه إلينا محققاً مدروساً، وقد يقضى المحقق عمره فى نشر كتاب واحد من هذا التراث<sup>(٢)</sup>.

لكن يمكن القول بصفة عامة: أن تحقيق المستشرقين للمخطوطات العربية فيما قبل

(١) خزائن الكتب العربية ١٩٠٠.

(٢) استمر كراشكوفسكى يعمل عشرين عاماً فى تحقيق رسالة الملائكة لأبى العلاء المرقى. (مع المخطوطات العربية ١٢٦، وفلوجل استمر ٢٥ عاماً فى جمع المخطوطات لكتاب الفهرست لابن النديم من مكاتب فينا وباريس وليون ولكنه توفى ولم يتم تحقيقه فتولاه رويدجر وأوجست هوليس فنشراه فى ٢٦٠ صفحة لبيزج سنة ١٨٧١ ثم لاحقاً ذيلاً فى ٢٧٩ صفحة تتضمن التفسيرات والتعليقات والاستدراكات بالعربية والألمانية وختمها بفهرس للأعلام (لبيزج ١٨٧٢) ثم عثر المستشرقون على جزء ساقط منه فى ليدن، نشره فى المجلة الشرقية الألمانية سنة ١٨٨٩ وعن طبعة فلوجل نشر فى القاهرة سنة ١٩٣٠ انظر(نجيب العقبى ٧٠١/٢).

القرن التاسع عشر كان متواضعا ساذجا، وأن ما تم خلاله وبعده كان جيدا، فقد توافرت للقاتمين عليه وسائل المعارضة بين النسخ المختلفة للكتاب الواحد، والثقافة الواسعة، والتمكن من العربية، فقدّموا النصّ وصحّحو أخطاه ووضّحو إشاراته، وضبطوا أعلامه، وألحقوا بكل كتاب فهرس فنية متنوعة.

لم يقف جهدهم في جمع المخطوطات على مجرد الاقتناء، بل فهرسوا ما جمعه من تراثنا فهرسة علمية دقيقة تصف معالم المخطوط وتبين حظه من الأصالة، وتحقق نسبة المخطوط، وتعرف بمؤلفه وتتبع تنقله بين أيدي المالكين جيلا بعد جيل. ومن ثم انتقلوا إلى المرحلة الثانية فعكفوا على ذلكم التراث في رهبة علمية ينشرون نفائسه تباعا، نشرا يعتمد على أدق منهج التوثيق والتحقيق، وكانوا - والحق يقال - أمناء على النصوص، لا يبيح أحدهم لقلمه أن يغير كلمة، أو حرفا منه، فإذا بدا له أن يستبدل فاء بواو أثبت في المتن رواية الأصل وجاء باللفظ المعدول إليه حاشية على الهامش مع بيان وجه العدول عن رواية المخطوط.



وصحونا من سباتنا فإذا ألوف الذخائر العربية بين أيدينا محررة موثقة نلوذ بها في دراساتها العالية، ونعدّ الرجوع إليها في أبحاثنا المتخصصة مدعاة للفخر والمباهاة.

وحالنا في النشر أعجب ! نقابل صنيع من اشتغلوا من العرب بنشر المخطوطات منذ أواخر القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين بصنيع المستشرقين فتروعنا المقابلة فأمانتهم في نقل النصوص يقابلها عندنا عبث بالنصوص، فيتناولها بالإضافة والحذف والتغيير إلى حد يهدر كل حرمة للنص كأثر تاريخي. ودقتهم في مقابلة النسخ الخطية للنص، والتماس الأصالة فيها، أو التثبت من صحة نسبها، يقابله عندنا، إغفال لذكر النسخة المنقول عنها أو إخراج طبعات ملفقة مرقعة تنسب إلى المؤلف القديم دون أن يتصل به نسبها.

وبدا واضحا أن أكثر القوم هنا لم يقصدوا إلى شيء من النشر العلمي، ولا عنانهم أن يتقلوا على أنفسهم ببعض أعبائه وتبعاته، ولا أن يضبطوا أقلامهم بشيء من نظمه ومناهجه، وإنما اتخذوا النشر وسيلة ارتزاق فحسب، وجعلوا طبع المخطوطات تجارة لا مجال فيها لتقدير حرمة النصوص، أو احترام أمانة العلم.

وإليكم ما يقوله أحد المؤرخين: «عارض ما نشره العلماء الغربيون من المخطوطات العربية بما نشرناه نحن! قابل مثلا تاريخ الطبري طبعة مصر بتاريخ الطبري طبعة لندن،

أو تاريخ المسعودى طبعة مصر وطبعة باريس، أو الشهر ستانى طبعة مصر طبعة لندن فماذا تجد؟! تجد أن مطبوعاتنا لا تكاد تكون صالحة للاستعمال بالنسبة لرداءة ورقها وكثرة أغلاطها، وخلوها من الفهارس، والحواشى، والتعليق، والملاحظات الانتقادية! فكأنما الغاية من طبعتها تجارية، فقط، بخلاف الطبعات الأوربية المجلّلة في الغالب بالمقدمات، والفهارس، والحواشى، والتدقيقات، فلا يكاد يستغنى عنها طالب<sup>(١)</sup>».

ولسنا نريد أن نجحف أحداً من علمائنا في ذلك الوقت حقه ولكننا نحب الحقيقة أكثر مما نحب علماءنا، أو سواهم، فقد سمعنا صرخات تتعالى بوجود النشر العلمى خلال هذه الفترة.

وإذا عدنا إلى المقابلة بين صنيع المستشرقين وصنيع تجارنا كادت تنسينا أننا أصحاب عهد قديم يمثل تلك الدقة المنهجية في الرواية والأداء، في الشعر والأخبار، قبل أن تسمع الدنيا بكلمة الاستشراق.

ونعود إلى تتبع سيرة ترانثا بين أيدي المستشرقين فنراهم بعد أن جدوا في جمعه وفهرسته وتحقيقه ونشره، انتقلوا به إلى المرحلة الهامة التى من أجلها كان الجهد المبذول فعكفوا على دراسة ذلكم التراث وقد توزعوه فيما بينهم، بعد أن استعانوا على تحقيقهم بإجادة عدة لغات! شرقية وغربية فانسمت آثارهم بالتحقيق، ودلائل المثابرة والاطلاع، بعد أن منحتهم دولهم المال والرعاية والتشجيع، ووضعت تحت أيديهم المكتبات العامرة بالبحوث والمخطوطات النادرة. يقول بارت المستشرق الألماني: «ونحن جميعا لمتمتعين بهذه النظم ونعترف شاكرين بأن المجتمع متمثلا في الحكومات والمجالس النيابية يضع تحت تصرفنا الإمكانيات اللازمة لإجراء بحوث الاستشراق وللحفاظ على نشاطنا العلمى في هذا المضمار»<sup>(٢)</sup>.

يذكر فيليب حتى: أن أبناء العربية اعتادوا أن ينظروا إلى لغتهم كأنها موضوع للدرس قائم بذاته، لا علاقة له بغيره، أما علماء أوروبا فينظرون إلى العربية باعتبار أنها فرع من اللغات السامية وشقيقة للعبرية، والسريانية، ولا يميزون لأحد أن يدرسها ما لم يكن قد ضم في دائرة اختصاصه الفيلولوجيا السامية، واللغات المجانسة للعربية المشتقة من نفس الأم التى اشتقت منها العربية<sup>(٣)</sup>.

(١) فيلب حتى. (تاريخ دراسة المشرقيات في أوروبا) مجلة الهلال نوفمبر سنة ١٩٢٤ ويقصد بذلك أوائل المطبوعات في مصر.

(٢) الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية ص ١٢.

(٣) انظر (تاريخ دراسة المشرقيات في أوروبا). مجلة الهلال يناير سنة ١٩٥٢.

ولعله بسبب من هذا ما يلقانا في تهميشات المستشرقين من إعادة الكلمة العربية إلى ما اشتقت منه أصلا في القديم.

\*\*\*

قدر المستشرقون المخطوطات العربية، فجمعوها أو ساعدوا على جمعها مهمة لا تعرف الكلل، ولئن اقتنوا بعضها بالأثمان البخسة، ومنها ما حمل حملا إليهم في عقر دارهم، فقد طلبوها بالأسفار الطويلة والنفقات الباهظة في مختلف الأصقاع، حتى توفر لديهم من المخطوطات العربية وحدها أعلام نفيسة تعد أكثرها من النوادير والأمهات التي خلت منها مكباتنا.

والمنهج العلمي الذي انتهجوه في نشر مخطوطاتنا عصم معظم أقلامهم من الزلل، إلى حد بعيد، فأنطوني بيفان حقق نقائض جرير والفرزدق في ١١٠٢ من الصفحات، وحين عثر على خلل في وزن أحد أبياتها بعد نشرها اغتم له غما شديدا<sup>(١)</sup>.

وعندما أخذت مطابعا تعيد نشر الكتب التي سبق أن نشرها هؤلاء المستشرقون أغفل بعضهم أسماء المستشرقين ومقدماتهم ومعاجهم! وشوهت شروحهم واستدراكاتهم، كتشويه مطبعة السعادة لطبقات فحول الشعراء الجاهليين والإسلاميين للجمعي بتحقيق جوزيف هل، فقد تصرف في نصوص المخطوطات ونسبت بعضها إلى غير صاحبه، ولن أذع قلمي يثقل عليكم بكثرة المطبوعات التي رأيناها يتجلى فيها العبث، ولكن سأعطي القلم لأحد أساتذة التحقيق الذين عانوا من هذه الطباعات وهو الدكتور طه الحاجري محقق كتاب البخلاء للجاحظ - يرحمه الله - يقول في مقدمته:

«لم تكد هذه النشرة التي نشرها فان فلوتن (للبخلاء) تصل إلى مصر حتى تلقفها أحد أولئك الذين يتجرون بنشر الكتب، وهو الحاج محمد الساسي المغربي، ففد بها إلى المطبعة (١٣٢٣ هـ/١٩٠٥ م). دون أن يتكلف شيئا من أوليات ما ينبغي في نشر الكتب! فلم يحاول مراجعة المخطوط، وهو قريب منه في دار الكتب المصرية في مجموعة كتب الشنقيطي نسخة مخطوطة عن مخطوطة كبريلي، التي صدر عنها فان فلوتن - بل لا ملاحظة للقراءات التي أثبتتها فان فلوتن في هوامش الصفحات، أو الملاحظات والإيضاحات التي ذيل بها نشرته - وهي ملاحظات لها قيمتها - بل لم يكلف نفسه الإشارة إلى النشرة التي طبع عنها، وبذلك جاءت هذه الطبعة المصرية الأولى صورة مشوهة من النشرة الأوربية، وظاهر أنه ما كان لنا - والأسف تنفطر منه قلوبنا - أن ننتظر غير هذا في ذلك العهد، ما دامت آثارنا العقلية ومظاهر مجدنا الأدبي قد بلغت من الهوان علينا حتى ندعها لعبث الاتجار الغفل

وأهوائه، فترى القائمين على نشر الكثير منها، قوما هم بطبيعة تكوينهم والغاية التي تحدهم أبعد الناس عن الروح العلمية التي يجب أن تكون صاحبة المكان الأول في هذا العمل الخطير»<sup>(١)</sup> هذا فضلا عما رأينا في صرخات أبي العلا عفيفي<sup>(٢)</sup> وغيره.

ولما كانت طبعات المستشرقين قد تفضل طبعات أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين؛ فقد باشرت الآن - مكتبة المثنى ببغداد وغيرها إعادة طبع أهم منشورات المستشرقين بطريق الأفست فنُيقت مكتبة المتنبي على مئة كتاب.

ويكتب بعض الناشرين من العرب - على قلة ما ينشرونه - : قورنت هذه النسخة بالنسخة المطبوعة في ليدن أو غيرها من بلدان أوروبا. حتى أولئك الذين لا يذكرن الاستشراق إلا بالثقمة عليه، كان لابد لهم من الرجوع إلى تحقيقات المستشرقين.

فلو لم يقدر تراثنا أن تجمع الكثير منه أيدي المستشرقين، وتكشف عنه ثم ترتبه وتصونه وتفهرسه وتيسر سبل الانتفاع به لما قدر لكثير من مخطوطاته أن ترى ضوء الشمس، ولفقد قدر عظيم منها، وظل آخر طي الكتمان إلا من أسمائه في الفهرست لابن النديم وكتب الأعلام والسير، ولعفى النسيان على غيره مما ضاعت أصوله، ولما استطعنا تصويره - كما فعل معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية والمكتبات العامة والعلماء - وتحقيقه والتصنيف فيه، ولا عرفنا قدره وأثره في الأمم الأخرى. ولو أنهم أرادوا به شراً لما استنفدوا أوراقه من الضياع، بل عمدوا إلى طيه إن لم يكن عن العالم فعنا.

وقد أفادني أحد الزملاء الذين ذهبوا إلى تركيا وإسبانيا وغيرها من بلدان العالم، لتصوير بعض مخطوطات مكتباتها، بالحفاوة التي كانوا يقابلون بها، في الوقت الذي لا يعبأ الكثير من أبناء العربية بالرد على استفساراتهم. وكانت لي شخصياً تجربة معهم عندما رغبت في نشر كتاب «رسالة في علم الموسيقى» فكتبت إلى مكتبة برلين لترسل إليّ النسخة الوحيدة في العالم وكانت معتمدى، ولتطلب ما تشاء من القيمة النقدية.. فأرسلتها مصورة على ورق، وكنت قد طلبتها مصورة على ميكروفيلم.. أما القيمة النقدية فقد أجابت عنها بقولها: عندما تطبع كتابك، فأرسل لنا نسختين!

والمستشرقون لم يكتفوا بجمع مخطوطاتنا، وصونها وفهرستها، بل عمدوا كما ذكرت إلى إحيائها بنشرها عن كفاية وجلد وافتنان على أحدث منهج علمي من قراءة نصوصها الصعبة في أوراق طمس الزمن الكثير من ملاحظها، ثم مقابلتها بنظيراتها، والتماس الأصالة فيها، والتثبت من صحة نسبها إلى أصحابها بتعدد الأقلام وفي مختلف الأزمان مهما كلفهم ذلك من

(١) البخله ص ١٠ المقدمة.

(٢) انظر تصدير مشكاة الأنوار بتحقيق أبو العلا عفيفي ص ١.

عناء ووقت ومال. والمستشرقون يحرصون على تأدية النص أداءً صحيحاً، كما تركه مؤلفه، وذكر فروق النسخ المخطوطة. فيما دق وجل، وبيالغ بعضهم في ذلك، حتى إنه يترك الخطأ البين دون إصلاح، بحجة أن ذلك يمثل لفة المؤلف وعصره.

وقد وفر لنا المستشرقون ألوف الذخائر العربية مرتبة محررة موثقة، تجلها مكاتبنا وتعتمد عليها جامعاتنا، ويستند إليها علماءنا، إذ سبقنا المستشرقون إلى نشرها. ولقد أحصى المستشرقون تراثنا الأدبي واللغوي والديني والعلمي من متابعه، وتأثره بغيره إلى تطوره وأثره في غيره؛ لتحديد الدور العلمي الذي اضطلع به، لا حصره في النطاق العربي الذي درجنا عليه، وعكفوا عليه في جلد وأناة وشغف، وبلغ من دقتهم أن أحصوا الكثير مما فات معاجمنا القديمة من مفردات جمعوها من أمهات الكتب وأرجعوا المفردات إلى معانيها لا الأولى وذكروا المولد منها: فأبو حيان والمسعودي وابن خلدون والبيروني ونظراؤهم من الكتاب الذين نشأوا في الأندلس أو شمال أفريقيا أو آسيا الوسطى استعملوا ألفاظاً في غير معانيها التي وضعت لها أصلاً، أو محدثة أو مبتدعة من اللغات المجاورة، وكتب «كارلو ألفونسو نلينو» عن التصحيقات العربية في معجمات اللغة، ووضع «ليفى دلا فيد» إضافات إلى المعاجم العربية... ثم اعتمادهم على مخارج الأصوات في اللهجات كمعجم فيشر للغة العربية، وقد قضى أربعين سنة في ترتيبه على المصادر، وأقر المجمع اللغوي في مصر طبعه وبوفاة مؤلفه استعادته ألمانيا وياشر مستشرقوها نشره سنة ١٩٥٤<sup>(١)</sup>.

والمنهج العلمي في النشر: لم يبتدعه المستشرقون ابتداءً، بل لا أكون مغالياً إذا قلت: إن النشر العلمي لم يعرف في أوروبا إلا في القرن التاسع عشر، فيذكر لنا لانجلوا الفرنسي: «أن العلماء المحصلين أنفسهم - ومهمتهم أن ينشروا الوثائق - (وهم من يعرفون عندنا اليوم بالمحققين) لم يكتشفوا فن تصحيح النصوص من أول وهلة، فمنذ عهد غير بعيد كانت الوثائق تنشر عادة وفقاً لأية مخطوطات اتفقت للنشر! صحيحة كانت أو سقيمة، مختلطة ومصححة كما اتفق. إن نشرات النصوص القديمة صارت غالبيتها اليوم (١٨٦٧-١٨٩٦)<sup>(٢)</sup> نقدية، ولكن النشرات النقدية الأولى لمؤلفات العصور الوسطى الرئيسية لم تتم إلا منذ أقل من ثلاثين عاماً، ولا يزال النص النقدي لبعض مؤلفات العصور القديمة الكلاسيكية (مثل نص كتاب يوسانياس) بحاجة إلى من يقوم بنشره»<sup>(٣)</sup>.

ويذكر في موضع آخر: «لقد كان على العلماء المحصلين في الماضي ومثلهم الناشئون في هذه الأيام، كان عليهم في مثل هذه الحالة أن يكبحوا حركة أولية بغية تصد عفا، ألا

(١) المستشرقون ١١٣٢/٣.

(٢) في هذه الفترة المذكورة كان يلقى لانجلوا وسنيوبوس محاضرتها في السوربون عن المنهج التاريخي.

(٣) لانجلوا. النقد التاريخي ص ٧٥.

وهي: الاستعانة بأية نسخة تقع في متناول اليد، والحركة الثانية ليست خيراً من الأولى، إذا كانت النسخ المختلفة ليست من عصر واحد فيستعان بأقدمها، والواقع أن الأقدمية النسبية للنسخ ليست لها نظريا وثواقفيا في كثير من الأحيان أية أهمية<sup>(١)</sup> فحتى أوائل القرن التاسع عشر لم تكن العلوم المساعدة، والوسائل الفنية للتحقيق والنشر منظمة آنذاك، وفي منتصف القرن التاسع عشر أنشئت في فرنسا (مدرسة الوثائق) ولا يزال حتى اليوم خير إعداد للمحقق أو للناشر هو ما يتم في مدرسة الوثائق، وعلى أو في ما يكون، وذلك بفضل دروس متدرجة طوال ثلاث سنوات تتألف من الفيلوجيا القديمة، وعلم المخطوط القديمة<sup>(٢)</sup>.

فالأوربيون لم ينشروا تراثهم نشرا علميا إلا في القرن التاسع عشر، والنشر الذي سبق هذا العصر كان نشرا ساذجا بسيطا.

ويقول برجشتراسر في مقدمة كتابه أصول نقد النصوص ونشر الكتب: «وقد نشأ هذا العلم (أى توثيق المخطوطات وتصحيحها) وترعرعت هذه الصناعة في أوروبا منذ القرن الخامس عشر بعد الميلاد، وذلك حينما اهتم القوم هناك بإحياء الآداب اليونانية واللاتينية، فكانوا يومئذ إذا وجدوا كتاب من كتب القدماء قاموا بطبعه، لا يبحثون عن النسخ الأخرى لهذا الكتاب، ولا يصححون إلا أخطائه البسيطة، فلما ارتقى علم الآداب القديمة، عمدوا إلى جمع النسخ المتعددة لكتاب من كتب القدماء، وإلى إحدى الروايات المختلفة، ووضعوها في نص الكتاب، وقيدوا ما بقي من الروايات في الهوامش، ولكنهم مع ذلك تعمدوا انتقاء المهم منها واستنتجوا اصطلاحات حدسية يخالفون بها ما هو مروى في النسخ، إلا أنهم في كل ذلك لم يكن لهم منهج معلوم ولا قواعد متبعة؛ لأنهم لم يكونوا قد فكروا تفكيرا نظريا في تصحيح الكتب، وأى الطرق تؤدي إليه، وأبها لا تؤدي، بل قد تؤدي إلى غرض باطل فاسد. وما زال الأمر كذلك حتى أواسط القرن التاسع عشر حين وضعوا أصولا علمية لنقد النصوص ونشر الكتب القديمة، وكان أول ما وصلوا إليه من هذه القواعد مستنبطا من الآداب اليونانية واللاتينية، ثم من آداب القرون الوسطى، فألفت المقالات والكتب في فن نقد النصوص<sup>(٣)</sup>.

ويعد من أدق المناهج التي عرفت في نشر النصوص ما يمثله «كتاب نقد النص» لبول ماس» الذي نشر أول ما نشر سنة ١٩٢٧<sup>(٤)</sup>.

(١) النقد التاريخي ٨٠ - ٨١.

(٢) انظر النقد التاريخي ٦٢ . وانظر ما ذكرناه ص ٣١٢-٣١٤ من هذا الكتاب عن اقتراح إنشاء هيئة عليا للتراث.

(٣) مقدمة أصول نقد النصوص ونشر الكتب وانظر المراجع المبينة به.

(٤) بوصفه القسم السابع من موسوعة جوركة ونوردن بعنوان (المدخل إلى علوم الأوائل) ثم نشر على حدة في ليبسك سنة ١٩٤٩ عند الناشر تويبرين ثم نشرة ثالثة سنة ١٩٥٧ ولقد قسم ماس كتابه إلى قسمين: الأول نظري والثاني أمثله تطبيقية على الأسس التي وضعها في القسم الأول ولما كانت هذه الأمثلة مستمدة كلها من الأديب: اليوناني واللاتيني ولا تفيد إلا من

وبالمثل فإننا نجد النشرات الأوروبية للكتب العربية فيما قبل القرن التاسع عشر نشرات هزيلة بسيطة ساذجة حتى فيما نشره «دى ساسى» نفسه، أما نشراتهم في القرن التاسع عشر وحتى الآن فهي نشرات لها وزنها العلمى ومنهجها المتقن، ولم أصدر هذا الحكم اعتباطاً فقد رجعت إلى ما أمكنتى الرجوع إليه من طبعات أوروبا قبل القرن التاسع عشر، أذكر منها: شرح أشعار الهذليين، وطبقات فحول الشعراء إلى غير ذلك من الكتب التى طبعت في القرن الثامن عشر<sup>(١)</sup>.

وبما أنهم دخلاء على التراث الشرقى فقد اصطنعوا التمحيص والدقة فيه؛ لعلمهم بأن الأخطاء الفاحشة والتحريف والتضليل تنال من أقدارهم في أعين الشرقيين، وتصرف الأنظار عنهم، وكان المستشرقون عديدين من دول متعددة يقرءون ما يكتب في موضوعهم بسائر اللغات، ويصحح بعضهم للبعض الآخر، وينزلون على الصواب متى أيقنوا الخطأ ويقولون: «إنا نحن المستشرقين لا نعرف العربية، فهذا أمر مشهور بجمع عليه لا ينكره عالم، ولا يدحضه عارف؛ فلذلك نحتاج إلى تقويم العلماء وإرشاد الفضلاء أمثال مرشدى الفاضل الذى نبهنى إلى ١١٦ خطأ لا غير (مائة وستة عشر)<sup>(٢)</sup>».

وقد التمس بعض علمائنا العذر لأخطاء المستشرقين في النشر فقال: «إن الأسفار الأدبية الأولى كانت تنسخ نسخاً، وكانت سوق النساخ رائجة دفع بعضهم إلى الصنعة التجارية فيها؛ فوقع تحريف كثير، ونصلت الكتابات! فما يستطيع المحقق اليوم بعد طول عهد الكتابة أن يميزها، فاعتاصت على بعض المستشرقين كلمات، كما وقع في «ذيل المعاجم العربية» لدوزى. منها: أتان وصحيحها آثار، - مؤدى - مودة، الإبريسم الإبرسيم، ألف مائة دينار - مائة ألف دينار، وقد صححها الشيخ إبراهيم اليازجى<sup>(٣)</sup>».

وكذلك قابلتهم صعوبة الشرح في بعض فنون الأدب، وفي قواعد اللغة العربية وأصولها، وترجمة بعض النصوص<sup>(٤)</sup>: كجمع بعضهم لورد على لوردين! بدلا من لوردات؛ لأنها جمع مذكر عاقل، وقد أحيزت من بعد، وتفسير كازانوقا: أمى بشعبى، وترجمة كازبير سكى.

قوله تعالى: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ باعبدوا آدم.

= يتقن هاتين اللغتين فقد ترجم الدكتور عبد الرحمن بدوى القسم الأول فقط، وهو يشمل ثلاثة أحماس الكتاب لأنه وحده الذى يفيد في كل لغة وبالنسبة إلى كل تاريخ وأدب، انظر الدكتور عبد الرحمن بدوى في مقدمة النقد التاريخى ١٤ - ١٥ والكتاب المذكور منشور ضمن هذا الكتاب.

(١) انظر طبقات فحول الشعراء المطبوع في لندن سنة ١٧٨٥.

(٢) شارل بيلا المستشرق حول كتاب البقال: مجلة معهد المخطوطات م ٣ ج ١ ص ١٦٢ وكان قد انتقده الأستاذ عبد السلام هارون.

(٣) انظر المستشرقون ج ٣ ص ١١٥٢ والمراجع المبينة به.

(٤) انظر مقدمة رسالة الفران للدكتور عائشة عبد الرحمن.

وفي رسالة الغفران للمعري في الحديث عن شعراء الجنة قال أبو العلاء: «فابتدئ بزهير يجده كالزهرة الجنية» فسّر المستشرق نيكلسون الجنى بالثرع جُنَى لساعته؛ وواضح أن أبا العلاء يصف زهير بن أبي سلمى بالشباب في الجنة بطول ماشكا الشيخوخة في الدنيا، وسُم تكاليف الحياة الأولى، لكن نيكلسون ظن أن الزهرة الجنية عَلم لشخص.

وفيها أيضا «كم نتظاهر باعتزال، يقنط على رهط الأخبار، ويسند إلى عبد الجبار» وظاهر أن عبد الجبار هنا هو القاضى المعتزلى المشهور صاحب المعنى أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد - القرن الخامس الهجرى - لكن نيكلسون ترجمه بمحمد.

تخبرنا محققة الغفران أنه «طلما عرفنا للمستشرقين أثرهم في نشر تراثنا القديم واعترافنا لهم بالفضل في وضع منهج للنشر العلمى الحديث، وأن أكثرنا قد بهره منهم هذا الجهد الشاق في درس الأدب العربى، وتلك العناية الفائقة الكبيرة بنشر مخطوطاته، فلم يعنه وراء ذلك أن يقف طويلا أمام النصوص التى ينشرونها، ليسأل عن مدى فهمهم للنص العربى ومقدار حظهم من التوفيق فى قراءته وأمانتهم فى توجيهه.. أول ما نذكره لنيكلسون هنا تلك الدقة المنهجية التى اتبعتها فى قراءة مخطوطته وعرضها، وتبدو هذه الدقة فى مظهرين:

أولها: الأمانة: فلم يغير شيئا من النص دون أن ينبه على ذلك ويشبث الرواية الأصلية بها، وقد أشار إلى ذلك فى مقدمته، كذلك لم يبيح لنفسه حق زيادة شىء على الأصل، فإن احتاج السياق عنده إلى كلمة أو كلمات وضعها بين أقواس، ونص بصراحة على أنه مسئول عنها وأنها ليست من الأصل.

والثانى: لدقته المنهجية: أنه وصف المخطوطة التى نقل عنها، وذكر نسبها وتجرى عنها. أما فهمه للنص ففيه أخطاء كثيرة! بعضها هين يمكن التجاوز عنه، أما الكثرة الباقية فنعرض صورا غريبة لفهم هذا المستشرق الكبير للنصوص العربية<sup>(١)</sup>».

والحق يقال: إن بعض المستشرقين كانوا يرفضون بعض تصحيحات أبناء العربية لهم، كما فعل بروكلمان فى نقده لنشرة دار الكتب لعيون الأخبار<sup>(٢)</sup> «وعلمهم بمعنى الأدب والبلاغة عَلم معجمى، يضع الكلمة أمام للكلمة، ولا ينفذ منها إلى اللباب<sup>(٣)</sup>».

يذكر الأب أنستاس مارى الكرملى أن «علم المستشرقين عرضه للنقد والتحقيق، كساتر الناس، ولا يد أن ينتقدوا الانتقاد الصحيح ليظهر الغشاء وينبذ، ويبلغ إلى صميم الحق

(١) أجيل القارئ على مقدمة رسالة الغفران ط: دار المعارف سنة ١٩٦٩. فيها مقارنات عجيبة توضح الفرق بين فهم أبناء اللغة العربية لنصوصها وفهم للمستشرقين لنصوص العربية.

(٢) انظر مجلة المجمع العلمى بدمشق م ١٤ سنة ١٩٣٦/١ - ١١١/١ - ١٢٦ وانظر كذلك مجلة معهد المخطوطات م ١٣/١١٢.

(٣) المستشرقون ٣/١١٥٤.

فيتبع، ولقد وجدنا هفوات لا تغتفر لهؤلاء المستشرقين من جميع الأمم وفي جميع التصانيف وما نشروه من الكتب، ولا يمكننا أن نتعرض لجميع هفواتهم، فهذا يدعوننا إلى وضع سفر ضخّم<sup>(١)</sup>.

يقول المستشرق ستورى: «إنكم في البلاد العربية تعتقدون أن المستشرقين متعصبون على الإسلام، وما أرى هذا الاعتقاد صحيحاً دون قيد، نعم إن هناك فريقاً تعصب بحكم صنعته التي يرتزق منها، ولكن هذا الفريق معروف عندنا كما هو معروف عندكم، وليس من الإنصاف أن يشمل الحكم جميع الباقيين. إن الذين خدموا العربية كثيرون، وقد حاولوا أن يكونوا منصفين في أبحاثهم بقدر ما يمكن للإنسان أن يكون منصفاً، وإن أخطأ باحث من غير قصد فليس السبيل إلى تقويمه أن يجرّح ويقذف، ثم إننا نبحت لغات بعيدة عنا ونخوض في موضوعات في غاية الدقة، مستعينين بالأساليب الحديثة، وكما أنه يشفع للطبيب الجراح - إن أخفق في عملية جراحية - حسن نيته، كذلك يجب أن يشفع للباحث طيب طويته وحرصه على الوصول إلى النتائج دون تعصب<sup>(٢)</sup>.

ولقد عقدت مقارنة بين أكثر من كتاب منشور بمعرفة المستشرقين ثم أعيد نشره بمعرفة العلماء العرب، وذلك بعد نهضة التحقيق عندنا في العربية فرأيت العجب: فمثلاً في قصيدة كعب بن زهير المنشورة في مجلة المجمع العلمي بدمشق م ١٤ ج ١ بتحقيق المستشرق البولوني تداوسن كوفلسكى. البيت المشهور ذكر في تحقيق المستشرق:

تَزِنُ الْجِبَالَ رَزَانَةً أَحْلَامُهُمْ وَأُكْفَهُمْ خَلْفٌ مِنَ الْأَمْطَارِ

وإني أحيل القارئ إلى تحقيق الشعر والشعراء «لدى غويه» وليقارنه بتحقيق الشيخ أحمد شاكر، فقد نبه على أخطاء «دى غويه» في مواطن كثيرة لأدعى لتعدادها.

وقد وضع دى غويه للكتاب فهرسين للأعلام والأماكن فقط، فيسر للباحث سبيل البحث والاستدلال، وعندما أعاد تحقيقه الأستاذ أحمد شاكر وضع له فهرس جمة متقنة للكتاب على أبوابه، وللأعلام عامة وللأماكن والقوافي ولأيام العرب، ووقائعها، والفهرس المهم فهرس الألفاظ المفسرة في الكتاب.

وقد طبع هذا الكتاب عدة طبعات: طبع لأول مرة في ليدن سنة ١٧٨٥م وهذه الطبعة ساذجة بسيطة وتوجد نسخة منها في أدب تيمور بدار الكتب المصرية، ولعل قارئها يجد فيها دليلاً على ما ذكرته سابقاً من أن تحقيق المستشرقين فيما قبل القرن التاسع عشر كان ساذجاً

(١) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق م ٢٣٥/٧/١٤ وما بعدها فقد سجل الكثير من أغلاط المستشرقين وتابع أخطأهم ونشرها في هذه المجلة.

(٢) المستشرقون ١١٦/٣ ناقلا هذا النص من علماء المشرقيات في إنجلترا ص ١٤ للدكتور إسحاق الحسيني ج ١ القدس سنة ١٩٤٠.

بسيطا، ثم أعيد طبعه في ليدن أيضا سنة ١٩٠٢م بعناية المستشرق دى غويه. ثم طبع بعد ذلك في مصر عدة طبعات سقيمة مبتورة كثيرة التصحيف والتحريف على ما هي العادة في طبع أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في مصر، فهذه الطبعات لا تعد شيئا مذكورا بالقياس إلى طبعة ليدن الثانية، ولكنها أقرب إلى طبعة ليدن الأولى سنة ١٧٨٥م حيث إن الطبعة الثانية في ليدن قد عني بها دى غويه فراجعها على خمس مخطوطات استحضرها من فيينا وبرلين وباريس ودمشق والقاهرة وأثبت ما بين النسخ من اختلاف في هامش الكتاب، وبذل مجهودا كبيرا في مراجعة كل موضع من المواضع التي اقتبسها المؤلفون من الكتاب.

وقارن - إذا أردت - البخلاء الذى حققه الدكتور طه الحاجرى بالبخلاء التى حققه المستشرق فان فلوتن.



وبعد: لقد تغيرت صورة الاستشراق اليوم عما كانت عليه في مطلع القرن العشرين، أو في القرن التاسع عشر، أو في العصور الوسطى، وذلك نتيجة تغير الأوضاع السياسية في الشرق العربى، ونتيجة النهضة القومية، واليقظة الفكرية التى نشهدها اليوم، ونتيجة تطور العلاقات السياسية بين الدول العربية والدول الأوروبية، فأصبح الاستشراق في السنوات الأخيرة يعيش في دائرة محدودة ضيقة بعد السيول الجارفة من أبحاث المستشرقين ونشراهم لكتب التراث، التى شهدناها في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وأصبح الاستشراق الآن يعيش في البيئات الأوروبية، بعد أن أغلق الشرق العربى أبوابه في وجه المستشرقين، حينما كانت الدول العربية في مطلع القرن العشرين تحت انتداب الدول الأوبية كانت الأبواب مفتوحة على مصاريعها أمام المستشرقين، وتمتع المستشرقون بحرية تامة في التجول بين مكتبات الشرق العربى، يسطون أحيانا على مخطوطاتها، أو يصورونها أو ينسخونها، أو يشترونها على حسب رغباتهم، وينبشون الآثار القديمة في البلاد العربية، ويسلبون معظمها ليملاؤها المتاحف الأوروبية، وكان العرب لا يزالون في مطلع القرن العشرين في أول طريق النهضة والثقافة، مما جعلهم في حاجة إلى تلك البضاعة الأجنبية المستوردة التى يقدمها لهم المستشرقون، وكان كثير من المستشرقين يظهرون في ثوب البراءة ويؤكدون حسن نيتهم، وأنهم إنما يريدون الكشف عن التراث العربى والإسلامى ودراسته، تبعا للمنهج العلمى الحديث، خدمة للعلم والحضارة فحسب، وكان العرب إذا أرادوا الاطلاع على التراث العربى لا يجدون أمامهم إلا ما حققه المستشرقون ونشروه، حتى أصبح الميدان مقصورا عليهم.



## مقارنة بين عمل المستشرقين وعمل أبناء العربية

وكما سبق أن ذكرت فإني عقدت أكثر من مقارنة بين تحقيق العرب خلال القرن العشرين وتحقيق المستشرقين، فرأيت: أنه بدأت نهضة فكرية وعلمية في أرجاء الشرق العربي، وظهر من بين علماء العرب أفذاذ في فن التحقيق بل في سائر فروع المعرفة، وقاموا بنشر وتحقيق أمهات الكتب العربية القديمة على أحدث الطرق التي وصل إليها الأوروبيون بل زادوا على هؤلاء المستشرقين لفقهم بلغة قومهم ولغة أسلافهم.

فالشيخ رفاعة الطهطاوي إمام البعثة العلمية الأولى إلى باريس والذي تتلمذ على إمام المستشرقين دى ساسي<sup>(١)</sup> نقل إلينا ما نقل من حضارة الغرب، وحرص في الوقت نفسه على أن يجمع ما استطاع من مخطوطات تراثنا، عمرت بها خزانة كتبه في سوهاج.

والإمام الشيخ محمد عبده الذي ألقى به الصراع السياسي إلى أوروبا حيث عاش زمنا يتابع جهاده من هناك، هو الذي جعل مطبعة بولاق الأميرية تدور لطبع ذخائر العرب. وشيخ العروبه أحمد زكي كم نادى بوجود تحقيق تراثنا على الطريقة العلمية، طريقة الأسلاف كما سبق أن ذكرنا في موضعه، وقام برحلات متعددة لجمع كنوز تراثنا، ونقل إلينا ما استطاع نقله منها.

والعلامة أحمد تيمور، العصري الثقافة والنشأة في جيله، هو الذي أنفق ماله بسخاء على جمع ذخائر المخطوطات العربية، ووهب لها حياته جامعا ودارسا ومفهرسا.

### حال المخطوطات العربية في فجر اليقظة:

وهؤلاء الرواد حين أرادوا تدعيم حركة اليقظة القومية بأصول من تراثنا ألفوه مبعثرا في شتى أنحاء الدنيا، فعجزوا عن استيعاب ما في خزائن الغرب منه بل عجزوا كذلك عن أن يحيطوا علما بما بقي لنا من ذخائره، ومنها ما كان مدفونا في خزائن خاصة لا يدرون عنها شيئا! أو مخزونا في سرديب الجوامع وأقبية القصور! أو مكدسا في كهوف اليمن، ملكا خاصا لحكام من الأئمة لا ينتفعون به ولا يريدون له أن ينفع الناس! فلا غرابة ولا ملام أن قصر جهد الحركة في فجر اليقظة على جمع ما أمكن جمعه من مخطوطات التراث وصيانتها في مكنتهم الخاصة كمكتبة رفاعة الطهطاوي بسوهاج، ومكتبة محمد عبده، والمكتبة الزكية، والمكتبة التيمورية، وهي الآن من المكتبات الخاصة بدار الكتب المصرية، وقد حفظ بعضه

(١) انظر تخلص الاريز في تلخيص باريز.

الآخر في مكتبات عامة أتاحت الانتفاع به، ونشر عدد غير قليل من ذخائره، أدت دورها في حركة اليقظة القومية بقدر ما واتت ظروف المرحلة وأعانت طاقتها. ومضى جيل الرواد وترك الأمانة في أعناق التابعين فوجدوا الطريق معبداً، فوفوا برسالتهم على المستوى العلمى الذى بلغه نضجهم وإدراكهم، وتقدم الزمان بهم.

ونرى هؤلاء التابعين فاقوا الرواد من المستشرقين، وكثيرا ما كانوا يصرحون بذلك فيقول الأستاذ أحمد شاکر في مقدمة شرح الترمذى ص ٦٤: «إنما أرجو أن يجد القارئ هذا الكتاب تحفة من التحف، ومثالا يحتذى فى التصحيح والتنقيح، وأصلا موثوقا به حجة، وليعلم الناس أننا نتقن هذه الصناعة - من تصحيح وفهارس ونحوها - أكثر مما يتقنه كل المستشرقين ولا أستثنى».

وإن المتصفح لطبقات فحول الشعراء طبعة ليدن سنة ١٨٧٥م يجد فيها بعض المقابلات القليلة جدلًا ولم توصف النسخ أو النسخة التى أخذت عنها وهى أقرب ما تكون فى إخراجها إلى طبعة بولاق فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، أما طبعة ليدن سنة ١٩٠٢، نشر دى غويه ففها دقة المستشرقين فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، إذ وصف كل النسخ التى أخذ عنها وعمل لها فهرسين للأعلام والبلدان ومقدمة باللاتينية، وحرص على إثبات فروق النسخ بكل دقة وأمانة مع الرمز لها، أما طبعة باريس سنة ١٩٤٧ فقد اعتمدت على نشرة دى غويه، وكذلك طبعة القاهرة بتحقيق أحمد شاکر فقد اعتمد عليها إلا أنه شرح بعض الألفاظ الغريبة، ولم يثبت اختلاف الروايات إلا قليلا، ولعله رأى أن اختلاف الروايات ما هى إلا أخطاء نساخ ظنها غير أبناء العربية أخطاء جوهريّة، ولئن كانت طبعة القاهرة تتمازج، فإن نشرة دى غويه تتمازج بميزة عظيمة أيضا فقد حرص الناشر كل الحرص على إثبات كل خلاف بين النسخ - على عادة المستشرقين - مها كان شأنه ليكون القارئ على بينة منه، فيختار ما يختار ويرد ما يرد بذوقه الخاص ورأيه المستقل، ولا يكون مقيدًا بذوق الناشر ورأيه، فقد يكون الناشر مصوبا للخطأ أو منحطنا للصواب وهو لا يدري؛ والأنظار متباينة والأفكار متفاوتة، وقد لاحظت أن المستشرقين لسعة درايتهم باللغات السامية فإنهم يرجعون اللفظ العربى إلى أصله الأعجمى أو اليونانى أو غير ذلك من أصوله.

والمستشرقون على وجه العموم يهتمون بفروق القراءات أكثر مما يهتمون بالشروح والتعقيبات، وما من شك فى أن الأمرين مطلوبان، فنحن بإثبات المقابلات ملزمون، ثم نحن - أصحاب هذا التراث - نحس بعد هذا حاجة القارئ إلى تيسير وتوجيه وتبيين، ويمثل الأستاذ أحمد شاکر الجهد العربى قائلا: «واجتهدت فى تحريج ما فى الكتاب من شعر

وغيره على ما وسعه جهدى، أى بيان أماكن وجوده فى الكتب الأخرى على نحو اصطلاح المحدثين فى تخريج الأحاديث<sup>(١)</sup>».

وبالمثل فإن مقارنة البخلاء للجاحظ ط. دار المعارف سنة ١٩٥٨ بتحقيق الدكتور طه الحاجرى، ونشره فان فلوتن تدل على أن فان فلوتن بذل غاية جهده، فى مراجعة المخطوطة الوحيدة التى أتاحت له، ومقارنة ما عسى أن يوجد من نصوص البخلاء فى بعض المصادر الأخرى، واستشارة بعض العلماء المستشرقين، مثل دى غويه فى تحقيق نصه، واستجلاء بعض مشكلاته، وتحرير بعض عباراته، حتى يبيىء الكتاب أقرب ما يكون إلى ما كتبه الجاحظ على ما هو الأصل فى النشر العلمى، ومع ذلك كله فإنه لم يتنع أن يبيىء الكتاب مليئا بالأخطاء التى تجعل النص فى بعض المواضع غامضا مستغلقا كما تجعله فى مواضع أخرى ركيكا سقيم العبارة متنافرا مع الصياغة العربية.

ويذكر الدكتور طه الحاجرى فى مقدمته لنشرته أن جزءا كبيرا من تبعة هذا يقع بطبيعة الحال - على اضطراب النص فى المخطوطة، واشتباه الحروف العربية بعضها ببعض فى كثير من الكلمات، مما يحتاج فى تبين الوجوه فيه إلى بصيرة قوية تمدها الروح العربية، وإلى مراعاة تامة فى قراءة المخطوطات، وتبيين ما عسى أن يعرض للناسخين الذين يتعارون الكتاب من حالات.

على أن هناك كثيرا من مواضع الخطأ فى نشرة فان فلوتن لا يرجع إلى المخطوط قدر ما يرجع إلى فان فلوتن نفسه! فقد يكون النص فى المخطوطة صحيحا مستقيما لا تكاد تداخله شبهة فيضطرب فى عينى فان فلوتن فيسبىء قراءته فيحرفه عن أصله، أو يضطرب فى إدراكه إذ لا يتبين وجهه ودلالته فيعدل به عن موضعه بقصد تصحيحه، وهو لا يدرى أنه بذلك يزيد النسخة فسادا إلى فساد.

يقول شيخنا محمود شاكى فى مقدمة تحقيقه لكتاب «أسرار البلاغة» ص ٩ المنشور سنة ١٩٩١ يقول: «ضعاف المحققين منا (أى من العرب) الذين يتكثرون بما لا ينفع الكتاب، ولا يهدى القارىء إلى شىء ينتفع به فى قراءة ما بين يديه من الكتاب».

ويكفى ما قدمته دليلا على فقه المحققين المعاصرين من أبناء العربية عن المستشرقين وليس هناك من داع لتعداد الكتب التى قارنت بينها فما أكثرها.

\* \* \*